مَعن بن زَائِدَة فِي شِعرِ مَروَان بن أبي حَفصَة
الرُّؤيَة والأَداة

د. هِشام عبد السلام علي جاد

مُدرس الأدب والنَّقد

بقسم الأدب والنقـــد

كُلِية الدراسات الإسلامِية والعربية - بالشرقِية

جامعة الأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للَّهِ وَاهِبِ النِّعمِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى مَنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وعَلَى آلِهِ وأَصحَابِهِ الرُّحَمَاءِ بَينَهُمْ، وعَلَى مَنْ جَاءَ بَعدَهُمْ مِنْ أُمَّةِ مَحَمَّدٍ خَيرِ الأُمَمِ.

وبعد

لقدْ كَانَ مَروَانُ بنُ أَبِي حَفصَة (١٠٥ــ ١٢٦هـ) شَاعراً كبيراً منْ شُعراءِ العَصرِ العَبَّاسِيِّ الأَوَّلِ (١٣٢ هـ ــ ٢٣٢ هـ)، وقَدْ ذَكَرَتْ المصَادرُ وبِخَاصَةِ المَصَادرُ الحديثَةُ أَنَّهُ شَاعرٌ مِنْ الشُّعراءِ المُخَضرَمِينَ ، فهَلْ كَانَتْ هَذِهِ المَصَادرُ تَقصِدُ الخَضْرَمَةَ التَّارِيخِيَّةَ أَو كَانَتْ تقصدُ الخَضرَمَةَ الأَدَبِيَّةَ، ونَحنُ معَ هَذِهِ المَصَادرِ إِنْ كَانَتْ تَقصِدُ الخَضرَمَةَ التَّارِيخِيَّةَ؛ فقَدْ عَاشَ مَروَانُ فِي عَصرِ الأُمَوِيِّينَ وعَاشَ أَيضاً فِي عصرِ العبَّاسِيِّينَ، وإِنْ كَانَ مَا عَاشَهُ فِي عصرِ العبَّاسِيِّينَ يُمثِّلُ عُمرَينَ مِمَّا عَاشَهُ فِي عصرِ الأُمَوِيِّينَ، أَمَّا إِنْ كَانَتْ تَقصِدُ الخَضرَمَةَ الأَدبِيَّةَ وبِخَاصَةِ الشِّعريَّةُ ، فَإِنَّ الوَاقِعَ الشِّعريَّ لِمَروَانَ بنِ أَبِي حفصَةَ يَقُولُ غَيرَ ذَلِكَ، فقَدْ جَاءَ هَذَا الشِّعرُ فِي رِجَالِ الدَّولَةِ العَبَّاسِيِّينَ مِنْ الخُلَفَاءِ والوُزَرَاءِ والوُلاةِ، ولَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الشِّعرِ مَا يُمَثِّلُ عَصرَ الأُمَوِيِّينَ إِلَّا ثَلاثَةُ أَبيَاتٍ قَالَهَا مَروَانُ فِي الخَلِيفَةِ الأَمَوِيِّ الوَلِيدِ بنِ يَزِيدِ (ت: ١٢٦ هـ)، فهَلْ هذِهِ الأَبيَاتُ الثَّلاثَةُ تَجعَلُهُ جَدِيراً بالأُمويَّةِ الأَدَبِيَّةِ والَّتِي سَيَكُونُ بِهَا مِنَ المُخَضْرَمِين، وقَدْ يُقَالُ إِنَ شِعرَ مَروَانَ فِي مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ (١٥٢ هـ) يُمَثِّلُ المَرحَلَةَ الأُمَوِيَّةَ، فقَدْ كَانَ مَعنٌ وَالِياً للأُمَوِيِّينَ ، ولكنَّ بِقِرَاءَةِ شِعرِ مَروَانَ فِي مَعنٍ، نَجِدُ أَنَّ هَذَا الشِّعرَ قَدْ قِيلَ فِي أَثنَاءِ الوِلَايَةِ العَبَاسِيَّةِ لِمَعنٍ والَّتِي ظَلَّ فِيهَا إِلَى أَنْ قُتِلَ، ومَا ذَكرَ مَروَانُ فِي شِعرِهِ فِي مَعْنٍ مِنْ أَسمَاءِ المُدنِ اليَمَنِيَّةِ، يُؤكِّدُ عَلَى عَبَّاسِيَّةِ شِعرِهِ فِي مَعنٍ، فقَدْ كَانَ مَعنٌ وَالِياً

عَلَى اليمَنِ للعبَّاسيِّينَ، فَمَدِينَةُ صَنعَاءَ يَأْتِي ذِكرُهَا فِي قَصِيدَتِهِ البائِيَةِ المَضمُومَةِ، وفِي هَذَا يَقُولُ[1] مَروَانُ (مِنْ الطَّوِيلِ):

فَمَا بَلَغَتْ صَنعَاءَ حَتَّى تَبَدَّلَتْ حُلُوماً وقَدْ كَانَتْ مِنَ الجَهْلِ تَشغَبُ

وفِي قَصِيدَتِهِ العَينِيَّةِ المفتُوحَة يقُولُ[2] (من الطَّوِيلِ) :

فَمَا بَلَغَتْ صَنعَاءَ حَتَّى تَوَاضَعَتْ دُرَاهَا وزَالَ الجَهلُ عَنهَا وأَقلَعَا

وفِي مَقطُوعِتِهِ القَافِيَّةِ المَضمُومَةِ يَقُولُ [3] (من الطَّوِيلِ) :

تَحِنُّ قَلُوصِي نَحوَ صَنعَاءَ إِذْ رَأَتْ سَمَاءَ الحَيَا مِنْ نَحوِ صَنعَاءَ تَبرُقُ

ويَأْتِي ذِكرُهَا فِي قَصَائِدَ كَثِيرةٍ ، كَمَا ذَكَرَ مَروَانُ فِي شِعرِهِ كَثِيراً مِنَ المُدُنِ اليَمَنِيَّةِ الأُخرَى ، ومِنْ هَذِهِ المُدُنِ نَجرانُ ، وفِيهَا يَقُولُ مَروَانُ[4] (من الكَامِلِ):

لولا رَجَاؤُكَ مَا تَخَطَّتْ نَاقَتِي عَرْضَ الدَّيِيلِ ولا قُرَى نَجرَانِ

ومَا سبقَ يُؤكِّدُ عَلَى العَبَّاسِيَّةِ الخَالِصَةِ لِمَروَانَ بنِ أَبِي حَفصَةَ.

عَاشَ مَروَانُ حَيَاتَهُ الأَدبِيَّةَ والشِّعرِيَّةَ الزَّاهِرَةَ فِي عَصرِ الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ اليَانِعَةِ، وقَدْ كَانَ مَروَانُ بنُ أَبِي حَفصَةَ مِنْ الشُّعَراءِ العَبَّاسِيِّينَ الَّذِينَ وَقَفُوا بِشِعْرِهِمْ معَ هَذِهِ الخِلافَةِ النَّاشِئَةِ فِي وَقتِهِ ، وقَدْ يَكُونُ مَا قَالَهُ فِي إِثْبَاتِ حَقِّ العَبَّاسِيِّينَ فِي الخِلافَةِ مِنْ أَقْوَى مَا قِيلَ فِي هَذَا الشَّأْنِ ، ولَنْ أَقِفَ مَعَ شِعرِ مَروَانَ الَّذِي قَالَهُ فِي الخُلَفَاءِ العَبَّاسِيِّينَ وبِخَاصَةٍ المَهدِيُّ (ت : ١٦٩ هـ) ، والهَادِيُّ(ت : ١٧٠ هـ)، والرَّشِيدُ (ت: ١٩٣ هـ)، ولا مَعَ شِعرِهِ الَّذِي قَالَهُ فِي البَرَامِكَةِ ؛ فَقَدْ نَالَ هَذَا الشِّعرُ مِنْ عِنَايَةِ البَاحِثِينَ والدَّارِسِينَ مَا أَعطَاهُ بَعضَ حَقِّهِ؛ لأَنَّ هَذَا الشِّعرَ مَا زَالَ فِي

(1) شعر مَروان بن أبي حَفصَة : د/ حسين عطوان ،(ط : ٣) ، دار المعارف ، (١٦) .
(2) السَّابق : (٦٣) .
(3) السَّابق : (٦٨) .
(4) السَّابق : (١٠٦) .

حَاجَةٍ إِلَى أَنْ يُقْرَأَ قِرَاءَةً جَدِيدَةً بِأَدَوَاتٍ جَدِيدَةٍ ، ولكِنَّنَا فِي هَذَا البحثِ سَنَقِفُ وَقفَةً طَوِيلَةً مَعَ شِعرِ مَروَانَ فِي مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ (ت: ١٥٢ هـ)؛ لِأَنَّ هَذَا الشِّعرَ الَّذِي قَالَهُ مَروَانُ فِي مَعنٍ لَمْ يُدرَسْ الدِّرَاسَةَ الَّتِي تَلِيقُ بِمَكَانَةِ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ فِي التَّارِيخِ الإِسلامِيِّ ، فَقَدْ كَانَ مَعنٌ قَائِداً وبَطلاً مِنْ أَبطَالِ الإِسلامِ الحَقِيقِيِّينَ، وتَتَجَلَّى عَظَمَةُ مَعنٍ فِي وَلَائِهِ لِأُمَّتِهِ الإِسلامِيَّةِ الخَالِدَةِ بِرِجَالِهَا المُخلِصِينَ، ولكنْ كَيفَ تَجَلَّتْ عَظَمَةُ مَعنٍ؟ كَانَ مَعنٌ وَالِياً لِلْأُمَوِيِّينَ ، بَلْ كَانَ مِنْ كِبَارِ الوُلاةِ ، وقَدْ وَصَلَ إِلَى مَنصِبِ الوِلَايَةِ؛ كَتَتوِيجٍ لِأَعمَالِهِ البُطُولِيَّةِ فِي مَيدَانِ الفُتُوحَاتِ الإِسلامِيَّةِ ، فَلَمْ يَكُنْ مَعنٌ أَمَوِيّاً أَو صِهراً لِلْأُمَوِيِّينَ، ولكنْ سَمَتْ بِهِ هِمَّتُهِ إِلَى أَرفَعِ مَكَانٍ وأَسمَى مَنزِلَةٍ فِي عَصرِ الخِلَافَةِ الأُمَوِيَّةِ، وتَتَمَكَّنُ الجيُوشُ العَبَّاسِيَّةُ مِنْ هَزِيمَةِ الأُمَوِيِّينَ، وقَدْ كَانَ مَعنٌ مِمَّنْ قَاتَلَ الجُيُوشَ العَبَّاسِيَّةَ بِبَسَالَةٍ شَهِدَ بِهَا العَبَّاسِيُّونَ، بَلْ إِنَّ الخَلِيفَةَ المَنْصُورُ (ت: ١٥٨ هـ)، يَجعَلُ مَبلَغاً كَبِيراً مِن المَالِ لِمَنْ يَأْتِي بِمَعْنٍ حَيّاً، ويَختَفِي مَعنٌ، ويَزحفُ بَعضُ الخُرَاسَانِيِّينَ عَلَى قَصرِ المَنصُورِ بِالهَاشِمِيَّةِ الَّتِي بَنَاهَا الخَلِيفَةُ السَّفَّاحُ (ت: ١٣٦ هـ) قَبلَ أَنْ يَنتَقِلَ إِلَى بَغدَاد، وكَادُوا يَفتِكُونَ بِهِ، ويَظهرُ مَعنٌ فِي المَعرَكَةُ، ويُقَاتِلُ بِشَجَاعَةٍ لا نَظِيرَ لَهَا، ويَتَعجَّبُ المنصُورُ مِنْ هَذَا الفَارِسِ المُلَثَّمِ بَعدَ هَزِيمَةِ الخُرَاسَانِيِّينَ، ويَسْأَلُهُ مَنْ أَنتَ؟ فيَقُولُ أَنَا مَنْ تَطلُبُ يَا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ، ويُقَدِّرُ المَنصُورُ هَذِهِ البُطُولَةَ الفَائِقَةَ فِي التَّارِيخِ الإِسلامِيِّ، لَقَدْ كان مَعنٌ عَظِيماً ؛ لِأَنَّهُ اليَومَ يَدَافِعُ عَنْ أَعدَاءِ الأَمسِ القَرِيبِ، أَنَّهُمْ الآنَ يَحمِلُونَ رَايَةَ الإِسلامِ، ولقَدْ كَانَ المَنصُورُ أَيضاً عَظِيماً ؛ لِأَنَّهُ قَدَّرَ هَذِهِ البُطُولَةَ الرَّائِعَةَ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تُقَدِّمَ مَا تَملِكُ مِنْ مَهَارَةٍ لِأَبنَاءِ أُمَّتِهَا، و بِمِثْلِ أَخلاقِ مَعنٍ والمَنصُورِ تَنهضُ الأُمَمُ وتَتَقَدَّمُ.

وقَدْ كَانَ فِيمَا سَبَقَ ذِكرٌ لِبعضِ الأَسبَابِ الَّتِي كَانَتْ دَافِعاً إِلَى دِرَاسَةِ شَخصِيَّةِ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ فِي شِعرِ مَروَانِ بنِ حفصَةَ، أَمَّا مَا كَانَ عَن الأَسبَابِ الَّتِي دَفعَتْنِي إِلَى الحَدِيثِ عَنْ شِعرِ مَروَانَ بنِ أَبِي حَفصَةَ فِي مَعنِ بنِ

زَائِدَةَ، فقَدْ سَبقَ أَنْ قُلْتَ إِنَّ هَذَا الشِّعرِ بِمَا فِيهِ مِنْ سُمُوٍّ أَدبيٍّ وأُفُقٍ بَيَانِيٍّ عَالٍ لَمْ يَنَلْ حَقَّهُ فِي الدِّرَاسَاتِ الأَدَبيَّةِ والنَّقديَّةِ الحديثَةِ ، كَمَا كَانَ مِنْ أَسبَابِ اختِيَارِ شِعرِ مَروَانَ فِي مَعنٍ للدِّرَاسَةِ أيضاً، ما اتُّهِمَ بِهِ شِعرُ مَروَانَ فِي مَعنٍ ، فقَدْ اتُّهِمَ هَذَا الشِّعرُ بِعَدمِ الصِّدقِ، وأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَجلِ العَطَاءِ والنَّوالِ ، ونَحنُ معَ مَا قِيلَ عَنْ نَظرِ مَروَانَ إِلَى المَالِ فِي مَدَائِحِهِ، سَواءٌ أَكَانَتْ هَذِهِ المَدَائِحُ فِي مَعنٍ أَمْ كَانَتْ فِي العبَّاسِيِّينَ، ولكِنَّنَا لَسنَا مَعَ مَا قِيلَ عَنْ عَدمِ صِدقِ مَروَانَ فِي مَدَائِحِهِ ، لَقَدْ كَانَ مَروَانُ صَادِقاً فِي مدحِ العبَّاسِيِّينَ ، وأَسُوقُ بُرهَاناً تَارِيخِيّاً فِي تَقْوِيَةِ جَانِبِ الصِّدقِ المَدحيِّ بِنَوعِيهِ الفَنِّيِّ والوَاقِعِيِّ فِي مَدَائِحِ مَروَانَ، فقَدْ ذَكَرَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ أَنْ مَروَانَ مَاتَ مَقتُولاً، منْ الَّذِي قَتَلَهُ ؟ ولِمَاذَا قَتَلَهُ؟ لقَدْ قُتِلَ مَروَانُ عَلَى يَدِ بَعضِ العَلَوِيِّينَ[1]، فقَدْ كَادَ العَلَوِيِّينَ مَا ذَكَرَهُ فِي شِعرِهِ مِنْ نُصُوصٍ قُرآنِيَّةٍ تُؤَكِّدُ علَى الحقِّ العبَّاسِيِّ فِي الخلافَةِ ، فَلَو كَانَ مَدحُ مَروَانَ لِلْعَبَّاسِيِّينَ مَدحاً مِنْ أَجلِ المَالِ ، فَلِمَ يُقتَلُ مَروَانُ ؟ ولِمَا يَزحفُ المَهدِيُّ مِنْ صَدْرِ مُصَلَّاهُ إِلَى البِسَاطِ وهُو يَسمَعُ مَدحَهُ فِيهِ ، وكُلُّ هَذَا يُؤَكِّدُ عَلَى صِدقِ مَروَانَ فِي مَدَائِحِهِ لِلْعَبَّاسِيِّينَ ، كَمَا كَانَ مَروَانُ صَادِقاً فِي مَدَائِحِهِ لِمَعنٍ ، ومِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَى صدقِ مَدَائِحِ مَروَانَ فِي مَعنِ بنِ زَائِدَةَ ، مَا قِيلَ عَنْ حَالِ مَروَانَ بَعدَ رحيلِ مَعنٍ ، لقَدْ قِيلَ إِنَّ مَروَانَ لَمْ يَنتَفِعْ بِشعرِهِ بَعدَ مَعنٍ ، ومعَ عَدمِ صِحَّةِ هَذَا القَولِ الَّذِي فَنَّدنَاهُ فِي أَثنَاءِ الحَديثِ عَنْ حيَاةِ مَروَانَ، فقَدْ جَاءَ هَذَا القَولُ لِيُؤَكِّدَ عَلَى صِدقِ مَروَانَ فِي مَدَائِحِهِ لِمعنٍ؛ فقَدْ جَاءَ مِمَّنْ يَقُولُونَ بِعَدَمِ صِدقِ مَروَانَ.

وهُنَاكَ أَمرٌ آخرٌ كَانَ لَابُدَّ مِنْ ذِكرِهِ ونحنُ نتَحَدَّثُ عَنْ أَسبَابِ اختِيَارِ شِعرِ مَروَانَ للحديثِ فِيهِ عَنْ مَعنٍ ، ويَبْدُو ذَلِكَ فِيمَا قِيلَ عَنْ عَدَمِ صِدقِ مَروَانَ فِي رِثَائِهِ لِمَعنٍ، ونَحنُ بِدَورِنَا نَقُولُ: كيفَ لا يكُونُ مَروَانُ صَادِقاً فِي رِثَائِهِ ؟ لقَدْ رَثَى مَروَانُ

(1) تاريخ الطَبَريُ (تاريخ الرُّسُل والمُلوك) : لابن جَرير الطَّبَريّ (ت : ٣١٠ هـ) ، (ط : ليدن) ، (١٨٧٩ م) ، (القسم الثالث : ١١ / ٧٠٧) ، وكذلك شعر مَروَان : (٩) .

مَعناً بِقَصيدَةٍ مِنْ القَصَائِدِ الطِّوالِ، فقدْ جَاءَتْ هَذِهِ القَصيدَةُ فِي أَربَعةٍ وخَمسينَ بيتاً ، وهَذِهِ القَصيدَةُ معَ طُولِهَا فقَدْ حَملَتْ مشَاعرَ حُزنٍ صَادِقَةً علَى رَحيلِ مَعنٍ ، ولَقَدْ كَانَ هَذَا الحُزنُ علَى رَحيلِ مَعنٍ ، لا علَى عَطَايَا مَعنٍ، ليس كما قَالَ أُستَاذُنا الأُستاذُ الدُّكتورُ/ مُصطفَى الشَّكعَةِ فِي كِتَابِهِ (رِحلةِ الشِّعرِ مِن الأُمَويَّةِ إِلَى العبَّاسيَّةِ)، فقَدْ قَالَ (وحِينَ يَمُوتُ مَعنُ بنُ زَائدَةَ الشَّيبَانِيُّ تَتَوَالَى مَرثِيَاتُ مَروَانَ بنِ أَبِي حَفصَةَ عَلَيهِ، وهِيَ جَمِيعاً عَلَى جَودَةِ إِنشَائِهَا ورُوحِ أَلفَاظِ مَروَانَ الجَزلَةِ ، فَإِنَّنَا نَكَادُ نَشعُرُ بِبُكَاءِ مَروَانَ عَلَى عَطَايَا مَعنٍ ولَيسَ عَلَى مَعنٍ نَفسِهِ[1])، ولكنْ إِذَا كَانَ بُكَاءُ مَروَانَ عَلَى عَطَاءِ مَعنٍ ، فَلِمَا لَمْ يَبكِ مَروَانُ عَلَى عَطَاءِ العَبَّاسِيِّينَ ؟ ولَقَدْ كَانَ عَطَاءُ العبَّاسِيِّينَ عَلَى مَعنٍ أَيضاً عَظيماً ، وهَذَا مَا ذَكَرَهُ أُستَاذُنا الدُّكتورُ الشَّكعَة فِي قَولِهِ (لقَدْ رَبِحَ مَروَانُ بنُ أَبِي حفصَةَ مِنْ شِعرِهِ مَا لَمْ يَربَحْهُ عَلَى الإِطلاقِ مِنْ شُعَرَاءِ العَرَبِيَّةِ، فقَدْ كَانَ يَتَقَاضَى مِنْ بَنِي العَبَّاسِ أَلفَ دِرهَمٍ عَلَى البَيتِ مِن الشِّعرِ، وهُو أَوَّلُ شَاعرٍ يَتَقَاضَى عَنْ قَصيدَةٍ وَاحِدَةٍ فَضلاً عَنْ قَصَائِدَ عَدِيدَةٍ رقَمَ المِائَةِ أَلفٍ[2]....) ، فَلَو كَانَ بُكَاءُ مَروَانَ عَلَى مَعنٍ مِنْ أَجلِ المَالِ ، لَكَانَ مَروَانُ أَكثرَ النَّاسِ بُكاءً عَلَى الخُلَفَاءِ العَبَّاسِيِّينَ ، لأَنَّهُمْ أَعطَوهُ مِن المَالِ مَا يَفُوقَ عَطَاءَ مَعنٍ، وقَدْ تَحَدَّثْتُ فِي البحثِ عَنْ عَطَاءِ العَبَّاسِيِّينَ لِمَروَانَ وعَطَاءِ مَعنٍ لَهُ ، وقَدْ ظَهرَ بالأَدِلَّةِ الكَثيرَةِ أَنَّ عَطَاءَ العَبَّاسِيِّينَ لِمَروَانَ كَانَ أَكثَرَ بِكثيرٍ مِنْ عَطَاءِ مَعنٍ لِمَروَانَ. وإِذَا كَانَ حَديثُ مَروَانَ عَنْ كَرَمِ مَعنٍ فِي رِثَائِهِ سَبباً فِي القَولِ إِنَّ مَروَانَ كَانَ يَبكِي عَطَاءَ مَعنٍ ، نَقُولُ : وهَلْ فِي ذِكرِ الخَنسَاءِ لِسَخَاءِ صَخرٍ ــ وقَدْ تَحَدَّثْتُ فِي رِثَائِهَا لَهُ عَنْ هَذَا الكَرَمِ كَثيراً ــ مَا يَدفعُ إِلَى القَولِ بِأَنَّ الخَنسَاءَ كَانَتْ تَبكِي عَطَاءَ صَخرٍ؟ لَقَدْ كَانَ مَروَانُ صَادقاً فِي مَرَاثِيهِ لِمعنٍ ــ وهَذَا ما سَوفَ يَظهرُ فِي هَذَا البحثِ ــ؛

---

(1) رحلة الشِّعر من الأمويَّةِ إلى العَبَّاسيَّةِ : د/ مُصطفى الشَّكعَةِ ، (ط : الأولى) ، الدَّار المصريَّة اللُّبنانيَّة ، (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م) ، (٥١٢) .

(2) السَّـابق : (٥٠٨) .

لأنَّ مَا يُقَالُ بَعدَ المَوتِ يُقَالُ مِنْ أَجلِ الوَفَاءِ ، فَلَمْ تَعُدْ هُنَاكَ بَعدَ المَوتِ رَغبَةٌ ولا رَهبَةٌ .

هذَا وقَدْ قُمتُ بِتَقسِيمِ البحثِ إِلَى :

مُقَدِّمَة ــ تَحَدَّثتُ فِيهَا عَنْ أَهَمِّ أَسبَابِ اختِيَارِ المَوضُوعِ مَوضُوعاً للبَحثِ .

تَمهِيدٍ ــ وقَدْ تَحَدَّثتُ فِيهِ عَن الحيَاةِ فِي العَصرِ العبَّاسِيِّ الأَوَّلِ .

المبحث الأَوَّل ــ وقَدْ جَاءَ تَحتَ عُنوان (بِطَاقَاتَ معرِفِيَّة) ، قَدَّمْتُ فِيهِ بِطَاقَاتٍ مَعرِفِيَّةً عَنْ مَروَانَ بنِ أَبِي حفصَة ، وعَنْ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ.

المبحث الثَّانِي ــ وقَدْ جَاءَ بعُنوان (مَعن بن زَائِدَة الشَّيبَانيِّ فِي شِعرِ مَروَانَ بنِ أَبِي حفصَةَ ــ رُؤيَّةٌ مَوضُوعيَّةٌ) .

المبحث الثَّانِي ــ وقَدْ جَاءَ بعُنوان (مَعن بنِ زَائِدَةَ فِي شِعرِ مَروَان بنِ أَبِي حفصَةَ ــ أَدَاةٌ فَنِيَّةٌ) .

خَاتِمَةٍ ــ ذَكرْتُ فِيهَا أَهمَّ النَّتَائِجِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيهَا البحث .

وفِي النِّهَايَةِ وبَعدَ أَنْ قَدَّمْتُ مَا أَملِكُ مِنْ جَهدٍ ، أَرجُو أَنْ أَكونَ قَدْ قَدَّمتُ فِي هَذَا البحثِ مَا يَدفعُ إِلَى قرَاءَتِهِ ، كَمَا أَنَّنِي أَشعُرُ بِسَعَادَةٍ عَظِيمَةٍ ؛ لِأَنَّ هَذَا البحثَ سَيَقِفُ بَينَ يَدَي رُهبَانِ العِلمِ وسَدَنَةِ الحِكمَةِ مُتَعَلِّماً وخَاشِعاً ..

وقُلْ ربِّ اغفِرْ وارحَمْ وأَنتَ خَيرُ الرَّاحِمِين

د / هشام عبد السَّلام علي جَاد

تمهيد

العَصْر

أ ولاً ــ الحَيَاةُ السِّيَاسِيَّةُ فِي العَصْرِ العَبَّاسِيِّ الأَوَّلِ :

دَالَتْ الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّةُ وآلَتْ الخِلافَةُ إِلَى العبَّاسِيِّين، وقَدْ كَانَتْ الخِلافَةُ العبَّاسِيَّةُ في العَصْرِ العَبَّاسِيِّ الأَوَّلِ (١٣٢ــ ٢٣٢ هـــ) قَوِيَّةً مُهَابَةً فِي الدَّاخِلِ والخَارِجِ، وقَدْ رَأَينَا ذَلِكَ في خِلافَةِ السَّفَّاحِ (ت: ١٣٦ هـــ)، والمنصُورِ (ت :١٥٨ هـــ)، والمَهْدِيِّ (ت: ١٦٩ هـــ)، والهَادِيِّ (ت: ١٧٠ هـــ)، والرَّشِيدِ (ت: ١٩٣ هـــ)، والأَمِينِ (ت: ١٩٨ هـــ)، والمأْمُون (ت: ٢١٨ هـــ)، والمُعتَصِمِ (ت: ٢٢٧ هـــ)، والوَاثِقِ (ت: ٢٣٢ هـــ)، وكَانَ يُمْكِنُ لِهَذِهِ الخِلافَةِ أَنْ تَظَلَّ بِهَذِهِ القُوَّةِ لَوْ أَنَّهَا تَعَلَّمَتْ مِنْ أَخْطَاءِ الأُمَوِيِّينَ الَّتِي أَوْدَتْ بِهِمْ ، ولكنَّ أَخطَاءَ الأَمْسِ القَرِيبِ تُكَرِّرُ نَفْسَهَا مِنْ جَدِيدٍ ، فقدْ جَعَلَ العبَّاسِيُّونَ الخلافَةَ وِرَاثِيَّةً ، وأَعَادُوا نِظَامَ وِلايَةِ العَهدِ ، وقَدَّمُوا الفُرسَ على العَرَبِ ، ولَقَدْ كَانَتْ هذِه الأَخطَاءُ مَعَاوِلَ هَدْمٍ أَضْعَفَتْ الخِلافَةَ العبَّاسِيَّةَ في العُصُورِ اللَّاحِقَةِ، ثُمَّ كَانَ الانْهِيَارُ المُرتَقَبُ[1].

ثَانِياً ــ الحَيَاةُ الاجتِمَاعِيَّةُ فِي العَصرِ العَبَّاسِيِّ الأَوَّلِ :

تَعَدَّدَتْ الأَجْنَاسُ فِي دَاخِلِ البِنَاءِ المُجْتَمَعِيِّ العبَّاسِيِّ ، فَكَانَ هُنَاكَ الفُرسُ، والرُّومُ، والتُّركُ، والهُنُودُ، والعربُ، ولقَدْ كَانَ للفُرسِ النُّفُوذُ والحُكمُ، ولَكِنْ كَانَ هذَا النُّفُوذُ ضَئِيلاً بِجَانِبِ سُلطَانِ الخُلَفَاءِ، وذَلِكَ؛ "لِقُوَتِهِمْ، وقُتُوَّةِ دَولَتِهِمْ، والتَّاريخُ لا يَزَالُ يُحدِّثُنَا بِمَا كَانَ مِنْ فَتْكِ المَنصُورِ بِأَبِي مُسْلِمٍ الخُرَاسَانِيِّ ، وفَتْكِ الرَّشِيدِ بالبَرَامِكةِ"، ولَستُ معَ مَنْ يَقُولُ إِنَّ نُفُوذَ الفُرسِ في العَصرِ العَبَّاسِيِّ الأَوَّلِ كَانَ عَلَى

(١) تاريخ آداب اللُّغة العَربيَّة : جَورجي زيدان ، (د : ط) ، دار الهلال ، (٢ / ٢١٠) ، وتاريخ الأدب العربيّ في العَصر العبَّاسيّ بغير الأندلس والمَغْرب : السِّبَاعي بيُّومي ، (ط : ٢) ، مطبعة العلوم بشارع الخليج ، (١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م) ، (٣ : ٤) .

حِسَابِ الكَرَامَةِ العَرَبِيَّةِ ، كَانَ لِلْفُرسِ مَكَانَتُهُمْ، وكَانَ للعَرَبِ تَقْدِيرُهُمْ، وكَانَ لِكُلٍّ مِنهُما دَورُهُ الَّذِي لا يُجْحَدُ فِي إِعلاءِ صَرحِ الحَضَارَةِ العبَّاسِيَّةِ المَاجِدَةِ ، ولِذَلِكَ قَدْ لا يكونُ مقبُولاً مَا يَقُولُه جُورجِي زِيدَانَ في كِتَابِهِ "تَارِيخِ آدابِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ"، يَقُولُ: "أَمَّا الدَّولَةُ العَبَّاسِيَّةُ فَقَدْ اصْطَبَغَتْ بِصِبْغَةٍ فَارِسِيَّةٍ؛ لِأَنَّ الفُرسَ هُمْ الَّذِينَ أَوجَدُوهَا وأَيَّدُوها، فَاتَّخَذَتْ بَغْدَادَ أَقْرَبَ الأَمْصَارِ إِلَى بِلادِهِمْ ، وأَطْلَقَ الخُلَفَاءُ أَيدِي المَوَالِي فِي سِيَاسَةِ الدَّولَةِ، فاستَقَلُّوا بِشُؤُونِهَا، واستَبَدُّوا بِأُمُورِهَا ، وكَانَ للعَرَبِ مِنْ الحَقَارَةِ والمَهَانَةِ ، وصَاعاً بِصَاعٍ، فَضَعُفَتْ العَصَبِيَّةُ، وعَلَا صَوتُ الشُّعُوبِيَّةِ ، ونَتَجَ عَنْ ذَلِكَ دُخُولُ العَنَاصِرِ التُّركِيَّةِ والسُّرِيَانِيَّةِ والرُّومِيَّةِ والبَربَرِيَّةِ في تَكْوِينِ الدَّولَةِ، وتَمَازُجُهُمْ بالتَّزَاوُجِ والتَّنَاسُلِ واختِلاطُ الآرِيَّةِ بالمَدَنِيَّةِ السَّامِيَّةِ...." (١).

ومَا قِيلَ عَنْ دَورِ الفُرسِ في قِيامِ الدَّولةِ أَو الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ أَمرٌ لا جِدَالَ فِيهِ، ولكنْ أَنْ يُقَالَ إِنْ العَرَبَ كَانُوا فِي حَقَارَةٍ ومَهَانَةٍ، فهَذَا أَمرٌ بَعِيدٌ عَنِ الحقِيقَةِ، إِذْ كيفَ يَرضَى الخُلَفَاءُ بِذَلِكَ وهُمْ عَرَبٌ تَجْرِي في عُرُوقِهِمْ الدِّمَاءُ العربيَّةُ؟ ومَا حَدَثَ في عَصرِ العبَّاسِيِّينَ مِنْ نَهْضَةٍ رَائِعَةٍ في كُلِّ مَجَالَاتِ الفِكرِ والإِبدَاعِ يُنَاقِضُ ذَلِكَ ، فَكيفَ يكونُ هُنَاكَ صِرَاعٌ اجتِمَاعِيٌّ ، وتَكُونُ هُنَاكَ نَهْضَةٌ عِلْمِيَّةٌ وأَدَبِيَّةٌ ؟

ثَالِثاً ـ الحَيَاةُ العِلمِيَّةُ فِي العَصرِ العبَّاسِيِّ الأَوَّلِ :

كَانَ لِقُوَّةِ الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ أَثَرٌ جَلِيٌّ في الحَيَاةِ العِلْمِيَّةِ، فقَدْ كَانَتْ الحيَاةُ العِلمِيَّةُ فِي رُقِيٍّ وتَقَدُّمٍ ، وقَدْ رَأَينَا هذه النَّهْضَةَ فِي كُلِّ العُلُومِ والفُنُونِ ، رأَينَاهَا في العُلُومِ الدِّينِيَّةِ والعَرَبِيَّةِ والدَّخِيلَةِ ، وقَدْ كَانَ لِهَذَا التَّقَدُّمِ أَسبَابٌ، وقَدْ بَدَا مِمَّا سَبَقَ بَعْضُهَا ، ويَظهَرُ ذَلِكَ فِي الامْتِزَاجِ بالحَضَارَاتِ غَيرِ العَرَبِيَّةِ، وكَانَتْ هذِه الحَضَارَاتُ على دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنْ التَّمَيُّزِ والتَّفَرُّدِ ، كَمَا تَجَلَّى بَعضُهَا في العِنَايَةِ

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : (٢ / ٢١١) .

الفَائِقَةِ الَّتِي أَولاهَا الخُلَفَاءُ للحَرَكَةِ العِلمِيَّةِ، فقَدْ " كَانُوا أَهْلَ عِلمٍ ، يُخَالِطُونَ العُلَمَاءَ مُخَالَطَةَ حِوارٍ ونِقَاشٍ، عَارِفِينَ قِيمَتَهُمْ، حَافِظِينَ لِمَكَانَتِهِمْ ، حَافِزِينَ ومُشَجِّعِينَ إِيَّاهُمْ عَلَى مَدِّ الدَّولَةِ الجَدِيدَةِ بِمَا تَتَطَلَّبُهُ حَضَارَتُهَا مِنْ عُلُومٍ وفُنُونٍ ، وقَدْ ظَهَرَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ خَلِيفَتِهِمْ الثَّانِي أَبِي جَعفَرٍ المَنصُورِ ، الَّذِي لَمْ يَأْلُ جَهْداً فِي وَضْعِ الأَسَاسِ لِنَشأَةِ العُلُومِ المُختَلِفَةِ مِنْ شَرْعِيَّةٍ ولِسَانِيَّةٍ وفَلْسَفِيَّةٍ ، وقَدْ قَفَاهُ مِنْ بَعدِهِ خُلَفَاؤُه ، ونَاهِيكَ بالرَّشِيدِ والمَأْمُونِ ، حَتَّى غَدَا هذَا العَصرُ عَصرَ النَّشْأَةِ العِلْمِيَّةِ فِي تَنَوُّعِ العُلُومِ والفُنُونِ ، وإِنَّهُ لَعَجَبٌ عَاجِبٌ تَمَكَّنَ العَرَبُ فِيهِ أَنْ يَنْقِلُوا إِلَى لُغَتِهِمْ جُلَّ عُلُومِ الفُرْسِ واليُونَانِ والهُنُودِ بِفَضْلِ مَا لِخُلَفَائِهِمْ مِنْ تَنْشِيطٍ حَرَكَةِ التَّرجَمَةِ وإِغْدَاقِ العَطَاءِ عَلَى النَّقَلَةِ والمُتَرْجِمِينَ....[1]" .

رابعاً ـ الحَيَاةُ الأَدبِيَّةُ فِي العَصرِ العَبَّاسِيِّ الأَوَّلِ :

إِزْدَهَرَتْ الحَيَاةُ الأَدَبِيَّةُ فِي هَذَا العَصرِ ازدِهَاراً وَاسِعاً ، وكَانَ هذَا الازدِهَارُ بِسَبَبِ تَشجِيعِ الخُلَفَاءِ للأُدَبَاءِ ، وقَدْ تَعَدَّدَتْ مَظَاهِرُ التَّشجِيعِ ، وَجَدْنَا الأَموالَ تُغْرِقُ الأُدباء، ووجَدْنَاهُمْ يُنَادِمُونَ الخُلَفَاءَ، وهَذَا مَا جَعَلَ الأُدَبَاءَ وبِخَاصةٍ الشُّعَرَاءُ يَمْتَزِجُونَ بِجَمِيعِ مَظَاهِرِ الحَيَاةِ العَبَّاسِيَّةِ، " فالشَّاعِرُ كَانَ بُلْبُلَ القُصُورِ ، ونَدِيمَ المُلُوكِ ، ورُوحَ الأَلْحَانِ على أَوتَارِ البَرَابِطِ وأَلْسِنَةِ القِيَانِ، والشَّاعِرُ رسَّامُ الحَيَاةِ بِمَا فِيهَا مِنْ مَآتٍ جِسَامٍ، وهُو لِسَانُ اللَّهْوِ والمُجُونِ ومَجَالِسِ الخَمْرَةِ، كَمَا هُو لِسَانُ الفَلسَفَةِ والزُّهدِ والتَّصَوُّفِ، إِنَّهُ يَنْتَظِمُ الحَيَاةَ اِنْتِظَاماً، ويَغْمُرُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا ، والنَّاسُ إِلَيهِ آذَانٌ تُصغِي وأَيدٍ تَنْبَسِطُ وتَجُودُ .[2]".

(١) تاريخ الأدب العَربي في العَصر العَبَّاسيّ : السَّبَاعِي بَيُّومي ، (٩ ، ١٠) .
(٢) الجَامِعُ فِي تَاريخ الأَدَبِ العَرَبيّ القَدِيم : حَنَّا الفَاخُوريّ ، (د : ط)، دار الجيل ، (٦٦٨) .

المبحث الأوَّل

بَطاقاتٌ معْرِفِيَّةٌ

أولاً ـ بطاقةٌ معرفِيَّةٌ عن مَروَانَ بنِ أبي حَفْصَة (١٠٥ ـ ١٨٣ هـ):

أ ـ اسمُه: أَجْمَعَت المَصَادِرُ الَّتِي تَرجَمَتْ لَهُ أَنَّهُ: مَروَانُ بنُ سُلَيمَانَ بنِ يَحْيَى بنِ يَزِيدَ، ولَقَدْ كَانَ يَزِيدُ يُكْنَى أَبَا حَفْصَةَ، وقَدْ عُرِفَ يَزِيدُ بهذِه الكُنيَةِ حَتَّى غَلَبَتْ عَلَى اسمِهِ، وأَصبَحَ يُقَالُ مَروَانُ بنُ أَبِي حَفْصَةَ، وكَانَ مَروَانُ يُكْنَى بِأَبِي السِّمطِ[1].

ب ـ أُسرَتُهُ :

وَإِذَا كَانَتْ المَصَادِرُ قَدْ اتَّفَقَتْ في اسمِهِ ، فَإِنَّهَا قَدْ اختَلَفَتْ في تَحديدِ أَصلِهِ ، فقَدْ قِيلَ : إِنَّ جدَّهُ يَزِيدَ كَانَ يَهُودِيّاً ، وقَدْ أَسلَمَ على يَدِ مَروانَ بنِ الحكمِ (ت: ٦٦ هـ)، ولكنَّ أَهلَه يُنكِرُونَ هذَا النَّسَبَ ، كَما ذُكِرَ أَنَّ جَدَّهُ كَانَ مِنْ سَبْيِ إِصْطَخْرَ، وأَنَّ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ (ت: ٣٥ هـ) اشتَرَاهُ فَوَهَبَهُ لِمَروَانَ بنِ الحَكَمِ (ت: ٦٦ هـ)، وقِيلَ هُو عَرَبِيٌّ مِنْ قَبِيلَةِ كِنَانَةَ بنِ عَوفِ بنِ عبدِ مَنَافِ بنِ إِلْيَاسِ بنِ مُضَرَ [2].

مِنْ خِلالِ ما ذُكِرَ يَظْهَرُ التَّعَارُضُ في تَحدِيدِ أَصلِ أُسرَتِهِ، فَهَلْ أُسرَتُه أُسرَةٌ عربيَّةٌ أَمْ أُسرَةٌ أَعجَمِيَّةٌ ؟ فالجَمِيعُ يُصِرُّونَ على أَنَّهُ أَعجَمِيٌّ أَسلَمَ جَدُّه فِي عَهدِ عُثْمَانَ (ت : ٣٥ هـ)، ولكنَّ العَجِيبَ أَيضاً أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ أَنَّهُ عَرَبِيٌّ، فَأَيُّ رَأْيٍ نَأْخُذُ وأَيُّ كلامٍ نُصَدِّقُ؟ ومَنْ يَقْرَأُ مَا كُتِبَ عَنْ أُسرَتِهِ، يجدْ أَنَّ مَا كُتِبَ فِي كِتَابِ الأَغَانِي وفي غَيرِه قَدْ يُرجِّحُ مِنْ عَرَبِيَّتِهَا ، فقَدْ جَاءَ فِي لَطَائِفِ المَعَارِف " ومَروَانُ بنُ أَبِي

---

(1) طبقات الشُعراء : ابن المعتز العبَّاسيّ ، (د : ط) ، دار المعارف ، بمصر (٤٢) ، وكتاب الأغانيّ : لأبي الفرج الأصفهَانيّ : تحقيق : إحسان عبَّاس ، (ط : ٣) ، دار صادر ، (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م) ، (١٠ / ٦٠) .

(2) الأغانيّ : (١٠ / ٦٠) ، وتاريخ الأدب العَربيّ ـ الأعصر العبَّاسيَّة ـ : عمر فروخ ، (ط : ٤) ، دار العلم للملايين ، (١٤١٤ هـ ـ ١٩٨١ م) ، (٢ / ١٣٠ ، ١٣١) .

حَفْصَةَ مِنْ أُسرَةٍ عَرِيقَةٍ فِي قَولِ الشِّعرِ ، تَوَارَثَ أَبنَاؤُها نَظْمَهُ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ، وتَنَاسَقَ مِنهُمْ عَشَرَةٌ مَذْكُرُونَ بالشِّعْرِ، أَنْشَدُوا الخُلَفَاءَ وأَخَذُوا الجَوَائِزَ ...[1]." . فمَروَانُ كَانَ مِنْ أُسرَةٍ مَشهُورةٍ بالشِّعرِ، وكَانَ الشِّعرُ في هذِه الأُسرَةِ عَرِيقاً وقَدِيماً، وقَدْ ذَكَرَ ابنُ النَّديمِ في كِتَابِهِ الفِهْرِسْت مَنْ قَالَ الشِّعرَ مِنْ أُسرَةِ مَروَان، فَذَكَرَ مِنهُمْ: أَبَا حفصَةَ ، ويَحْيَى، وشَاعِرَنا مَروَانَ، ومَروَانَ بنَ مَروَان، .....[2]"، ومِثْلُ هَذِه الأُسرَةِ الَّتِي يتَفَوَّقُ فِيها هذَا العَدَدُ الكبيرُ في نَظْمِ الشِّعرِ لابُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهَا نَسَبٌ فِي العَربِ أَو أَنْ تَكُونَ عَرَبِيَّةً .

جـ ــ حيَاتُه :

وُلِدَ مَروَانُ فِي اليَمَامَة سنَةَ ١٠٥ هــ ، وعَاشَ فِيهَا كَما عَاشَ فِيها آبَاؤُه وأَجدَادُه ، لكنْ كيفَ كَانتْ حَيَاتُهُ في اليمَامَة ؟ كيفَ كَانَتْ سنَواتُهُ الأُولَى ؟ كيفَ كَانَتْ عِلاقَتُهُ بمَنْ حَولَهُ مِنْ أَهلِ اليمَامَة ؟ لانَجدُ عَنْ هَذَا جَواباً في كُتُبِ التَّاريخِ والأَدبِ ، كَمَا أَنَّ شِعرَهُ أَيضاً قَدْ سَكَتَتْ عَنِ الكلامِ فِي هذه النَّاحِيَة، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ قَدَّمَ لَنَا شِعرُهُ صُورَةً وَافِيَةً عَنْ حَيَاتِهِ الشِّعريَّةِ ، فقَدْ جَاءَ فِي شِعرِهِ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلى دِمَشْقَ في بِدَايَةِ حَيَاتِهِ الشِّعرِيَّةِ، ومَدَحَ الخَلِيفَةَ الأُمويَّ الوَلِيدَ بنَ يَزِيدَ بنِ عبدِ المَلِك (ت: ١٢٦ هــ)، وكَانَ في هَذِه اللَّحظَةِ قَدْ جَاوزَ العِشْرِينَ بقَلِيلٍ ، وكَانَ مِمَّا جَاءَ فِي مَدحِهِ (من الخَفِيفِ) [3]:

---

(1) لطائف المعارف : تحقيق : إبراهيم الإبياريّ ، (ط : دار إحياء الكتب العربيّة)، (٧١)، والفهرست لابن النديم : (ط : ١) ، مكتبة خيَّاط بيروت ، (١٦٠) ، وشعر مروان بن أبي حفصة : تحقيق : حسن عطوان ، (ط : ٣) ، دار المعارف ، (٧) .

(2) الفهرست : (١٦٠) .

(3) شعر مروان بن ابي حفصة : (٣٣) .

إِنَّ بالشَّامِ بِالْمُـوَقَّرِ عِـزّاً وَمُلُـوكاً مُبَارَكِينَ شُهُوداً
سَادَةٌ مِنْ بَنِي يَزِيدَ كِـرَاماً سَبَقُوا النَّاسَ مَكْرُمَاتٍ وجُودا
هَانَ يَا نَاقَتِي عَلَيَّ فَسِـيرِي أَنْ تَمُوتِي إِذَا لَقِيـتِ الْوَلِيـدَ

ولَكِنْ يَبدُو أَنَّ الوَلِيدَ لَمْ يَحْتَفِ بشِعْرِه ، وهَذَا مَا جَعَلَهُ يَتَوقَّفُ عَنِ الذَّهَابِ إِلَيهِ ، ويبْدُو أَنَّه قَدْ تَوقَّفَ عَنْ نَظْمِ الشِّعرِ فِي خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ، وهذَا ما جَعَلَهُ يَتَّجِهُ بشِعرِهِ إِلَى وُلَاةِ بني أُمَيَّةَ ، فَوَجَدْنَاهُ يمدَحُ مَعْنَ بنَ زَائِدَةَ (ت : ١٥٢ هـ) كَثِيراً، وظَلَّ يمْدَحُهُ عِندَما أَصْبَح وَالِياً لِلْعَبَّاسِيِّينَ، وبَعدَ مَوتِ مَعْنِ بنِ زَائدةَ يَمْدَحُ مَروَانُ الخُلَفَاءَ العَبَّاسِيِّين ، فيمدَحُ المهديَّ (ت: ١٦٩ هـ) ، والهَاديَّ (ت : ١٧٠ هـ)، والرَّشِيدَ (١٩٣ هـ) .

د ـ أَخلاقُه:

مَدَحَ مَروانُ بنُ أَبِي حَفصَةَ الوُلاةَ والخُلَفَاءِ والوُزَرَاءَ، وقَدْ أَعطُوهُ أَمْوَالاً كثيرةً ، لَكِنَّ هذِه الأَموَالَ لَمْ تُغَيِّرْ شَيئاً مِنْ بُخْلِهِ الَّذِي عُرِفَ بِهِ وظَهَرَ أَثَرُهُ فِي مَلْبَسِهِ ومَأْكَلِهِ، وهُنَاكَ فِي كُتُبِ الأَدبِ الكثيرُ مِنْ نَوَادِرِه الَّتِي تُحكَى فِي هَذَا الشَّأْنِ[1].

هـ ـ مَذْهَبُه السِّيَاسِيّ :

فِي الحَدِيثِ عَنْ المَذْهَبِ السِّيَاسِيِّ لِمَروَانَ بنِ أَبِي حَفْصَةَ نَبْدَأُ مِمَّا ذَكَرَهُ الأُستاذُ الدُكتور/ مُصطَفَى الشَّكْعَةِ في كِتَابِهِ رِحلَةِ الشِّعر ، فقَد ذَكَرَ فِي هَذَا الكِتَابِ أَنَّ " مَروَانَ كَانَ أُمَوِيَّ الهَوَى والوَلاءِ، فَجَدُّهُ كَانَ مَولَى لِعُثْمَانَ ، ثُمَّ وَهَبَهُ لِمَروانَ بنِ الحَكَمِ ، وجَدُّه يَحيَى كَانَ عامِلاً مِنْ عُمَّالِ بَنِي أُمَيَّةَ ، كَمَا أَنَّهُ كَانَ شَاعِراً مِنْ شُعَرَاءِ الوَلِيدِ بنِ يَزِيدَ ، وقَدْ سَأَلَهُ الرَّشِيدُ ذَاتَ مَرَّةٍ عَمَّا إِذَا كَانَ قَدْ دَخَلَ علَى الوَلِيدِ،

(1) الأغانيّ : (١٠ / ٦٦) .

فَأَجَابَهُ بِالإِيجَاب، قَائلاً دَخَلْتُ مَعَ عُمُومَتِي إِلَيهِ ، وهُنَا قَالَ الرَّشِيدُ : فَأَخبِرنِي عَنْهُ، فَأَصَابَ مَروَانُ حَرَجٌ فِي القَولِ وجَعَلَ يَتَزَحْزَحُ فِي مَحَلِّه ، ولَكِنَّ الرَّشِيدَ بِرَحَابَةِ صَدْرِهِ قَالَ لَهُ: إِنَّ أَميرَ المُؤمِنِينَ لا يَكرَهُ مَا تَقُولُ ، فَقُلْ مَا شِئْتَ ، فَقَال يَا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ: كَانَ مِنْ أَجمَلِ النَّاسِ وَجْهاً وأَشْعَرِهِمْ وأَجْوَدِهِمْ ، دَخَلْتُ عَلَيهِ مَع عُمُومَتِي ولِي لِمَّةٌ فِينَانَةٌ ،فَجَعَلَ يَغْمِزُ بالقَضِيبِ ويقُولُ: ولَدَتْكَ سُكَّرُ؟[1]"، وبَعْدَ هَذَا العَرضِ الطَّوِيلِ ، يَقُولُ الدُّكتورُ الشَّكعَةُ " إِذَنْ فَالوَلاءُ الأَصِيلُ لِمَروانَ إِنَّما هُو للأُمَوِيِّينَ دُونَ العَبَّاسِيِّين، ولَكِنَّهُ اصطَنَعَ الوَلاءَ للعَبَّاسِيِّينَ طَلَباً لِلمَالِ وانتِجَاعاً للنَّوالِ، فَالوَلاءُ هُنَا وَلاءٌ لِلمَالِ الَّذِي أَحبَّهُ مَروانُ..." [2]. ويظهَرُ بِوُضُوحٍ رأيُ الدُّكتُور الشَّكْعَةِ فِي أُمَوِيَّةِ مَروانَ ، فهُو يَرَى أَنَّ مَروَانَ كَانَ أُمَوِيًّا في هَواه، لَكِنَّ مَا هِيَ الأَسبَابُ الَّتِي دَفَعَتْهُ إِلَى هَذَا القَولِ؟ فقَدْ رَأَى فِي وَلاءِ جَدِّه أَبِي حَفصةَ لِعُثمَانَ ، ثُمَّ لِمَروَانَ بنِ الحكمِ سَبَباً فِي الحُكْمِ عَلَى مَروَانَ بنِ أَبِي حَفْصَةَ بالأُمَوِيَّةِ، كمَا رَأَى فِي مَدحِهِ للعَبَّاسِيِّينَ مِنْ أَجلِ المَالِ سَبَباً آخَرَ يُدَعِّمُ مَا ذَهَبَ إِلَيهِ، وما ذَكَرَه الدُّكتور الشَّكعَةُ هُو نَفسُه ما قِيلَ في كِتَابِ الأَغَانِي لأَبي الفَرجِ الأَصفَهَانِيِّ وكتابِ وَفَياتِ الأَعيانِ لابنِ خِلِّكَانَ وكتابِ طبقاتِ الشُّعراء لابنِ المُعتَزِّ، ولا خلافَ في نَظَرِ مَروَانَ إِلَى المَالِ عِندَ مَدحِهِ للعبَّاسِيِّينَ ، ولكنَّ أَنْ يُقَالَ بِأُمَوِيَّةِ مَروَانَ، فقَدْ لا يُسَلَّمُ بهَذَا القَولِ لِأَنَّ :

١ــ وَلاءَ الأَجْدَادِ لِمَذْهَبٍ أَو لِفِكْرَةٍ لا يَعْنِي الِتِزَامَ الأَبنَاءِ بِهَا ، فقَدْ تَحَدَّثَ الدُّكتورُ الشَّكعَةُ عَنْ وَلاءِ جَدِّهِ أَبِي حفصةَ للأُمَوِيِّينَ ، ثُمَّ حَكَمَ بِأُمَوِيَّةِ مَروانَ.

---

(1) رحلة الشِّعر : د/ مصطفى الشَّكعة ، (ط : الأولى) ، الدار المصريَّة اللُّبنانيَّة ، (١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م) ، (٥١٤، ٥١٥).

(2) السَّابق : (٥١٥) .

٢ــ العِلاقَةَ بينَ مَروانَ وبينَ الأُمويِّينَ لَمْ تَكُنْ قَويَّةً ، فقَدْ دَخَلَ على الوَليدِ بنِ يَزيدَ ومَدَحَه بقَصيدَتِهِ الدَّالِيَّةِ ، ولكنَّ الوَليدَ لَمْ يُبدِ إعجَاباً بِمَا سَمِعَ ، معَ أَنَّ الأَبياتَ الَّتِي وَصَلَتْ مِنْ هَذِهِ القَصيدَةِ تَدُلُّ على شَاعِرِيَّةٍ نَاشِئَةٍ قَوِيَّةٍ .

٣ــ الخِلافَةَ الأُمَويَّةَ قَدْ دَالَتْ وذَهبَتْ بَعدِ حُكمٍ طَويلٍ دَامَ ما يَزيدُ عن اثنَينِ وتِسعِينَ عَاماً ، وقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الخِلافَةُ خِصْبَةً بِمَا أَنجَزَتْ وقَدَّمَتْ للأُمَّةِ الإِسلامِيَّةِ ، وهُنَا نَسْأَلُ ونقُولُ : أَينَ شِعرُ مَروَانَ مِنْ هذَا الانهِيَارِ الأُمويِّ المُؤلِمِ ، وقَدْ كَانَ مَروانَ يَتَمَتَّعُ بِشَاعِرِيَّةٍ عَالِيَةٍ .

٤ــ مَروانَ لَو كَانَ ولاؤُه للأُمَويِّينَ لَبَكَاهُمْ بِشِعْرِهِ كَمَا بَكَى مَعْنَ بنَ زَائِدَةَ الشَّيبَانيَّ (ت : ١٥٢ هــ) بقَصيدةٍ طَويلةٍ جَمِيلةٍ مِنْ أَجمَلِ مَا قِيلَ فِي الرِّثَاءِ، وكيفَ لا تكونُ جَمِيلةً صَادِقَةً ؟ وقَدْ أَبكَتْ هَذِهِ القَصيدَةُ الخَليفَةَ الرَّشِيدَ (ت : ١٩٣ هــ) .

٥ــ مَروَانَ أَكثَرَ في شِعْرِهِ مِنْ مَدْحِ الخُلَفَاءِ العبَّاسِيِّينَ ، فَلَو كَانَ لِمَروَانَ وَلاءٌ لَكَانَ العَبَّاسِيُّونَ أَولَى بِهِ ، وقَدْ يُقَالُ إِنَّ هذَا المَدْحَ كَانَ مِنْ أَجلِ المَالِ، قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ صَحِيحاً ، لَكِنَّ الرَّغْبَةَ فِي المَالِ وحدَهَا لا تَكْفِي فِي تَحرِيكِ مَشَاعِرِ مَروَانَ وإِثَارَةِ شُعُورِ الخُلَفَاءِ بالإِعجَابِ ؛ فالتَّجَارِبُ الشُّعورِيَّةُ النَّاجِحَةُ لابُدَّ فِيها مِنْ تَحقُّقِ الصِّدْقِ، ولَقَدْ كَانَ مَروانُ صَادقاً في شِعرِهِ العَبَّاسِيِّ ، ولولا هَذَا الصِّدْقُ ما استَطَاعَ مَروانُ أَنْ يَنْتَزِعَ دِرهَماً أَو دِينَاراً من الخُلَفَاءِ العَبَّاسِيِّينَ .

و ــ شعرُه :

مَروَانُ لَهُ دِيوَانُ شِعرٍ جَمَعَهُ الدكتور / حسين عطوان ، وعَنْ مَروَانَ وشِعرِه يقُولُ الدُّكتور الشَّكعة: " مَروانُ بنُ أَبِي حَفصَةَ شَاعِرٌ مُكثِرٌ مِنْ الشُّعَراءِ المُجِيدِينَ والفُحُولِ المُتَقَدِّمِينَ المُحَكِّكِينَ للشِّعرِ على مَذْهَبِ زُهَيرِ بنِ أَبِي سُلمَى ، وشِعرُهُ كُلُّه جَيِّدٌ وعَلَى الأُسلُوبِ القَدِيمِ ، وقَصرَ مَروَانُ شِعرَهُ على المَدِيحِ والرِّثَاءِ ،

وعلَى عَدَدٍ مِنَ المَوضُوعَاتِ الوِجْدَانِيَّةِ، وكَانَ لا يَمدَحُ إِلَّا الخُلَفَاءَ والوُزَرَاءَ، ومَدَائِحُه فِي مَعْنِ بنِ زَائِدَةَ وَالِي اليَمَنْ للعَبَّاسِيِّين تُستَحْسَنُ ..." [1]. وكَذَلِكَ تُستَحْسَنُ مَرَاثِيهِ فِي مَعْنٍ ، ومِنْ أَروَعِ مَرَاثِيهِ فِي مَعْنٍ قَصِيدَتُه اللَّامِيَّةُ ، وعَنْ هَذِه اللَّامِيَّة يَقُولُ مُؤَرِّخُو الأَدبِ : " إِنَّ مَروَانَ بعْدَ هَذِه القَصِيدَةِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشِعْرِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا مَدَحَ خَلِيفَةً أَو مَنْ دُونِهِ قَالَ : أَأَنْتَ قُلْتَ فِي مَرثِيَتِكَ فِي مَعْنٍ (من الوافر)[2]:

وَقُلْنَا أَينَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ		وقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوالا[3]

فَكَانَ لا يُعطِيهِ المَمْدُوحُ شَيئاً، بَلْ كَانَ لا يُسمَعُ شِعرُهُ، هذَا مَا قَالَه مُؤَرِّخُو الأَدب، ومِنْ هؤلَاء: أَبُو الفرج الأَصفَهَانِيُّ، وابنُ خِلِّكَان، والدُّكتور الشَّكعَةُ مِنَ المُحدَثِينَ ، ولكنَّ التَّأْرِيخَ الشِّعريَّ للشَّاعِرِ يَقُولُ غَيرَ ذَلِكَ ، التَّأْرِيخُ الشِّعرِيُّ يَقُولُ إِنَّ مَروَانَ لَمْ يَأْخُذْ العَطَايَا الجِزَالَ والهِبَاتِ الثِّقَالَ إِلَّا بَعدَ وَفَاةِ مَعْنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ ، وقَبلَ الحَدِيثِ عَنْ عَطَاءِ العَبَّاسِيِّينَ لِمَروَانَ ، أَذكُرُ شَيئاً مِنْ عَطَايَا مَعْنٍ لمَروَانَ ، فَقَدْ قَدِمَ مَعنٌ مِنَ اليَمَنِ ، وذَهَبَ إِلَيهِ مَروَانُ ومَجْلِسُهُ غَاصٌّ بِأَهلِهِ ، وقَدْ أَخَذَ بِعِضَادَتَي البَابِ ، وأَنْشَأَ يَقُولُ (مِن الطَّوِيل)[4] :

وَمَا أَحْجَمَ الْأَعْدَاءُ عَنكَ بَقِيَّةً		عَلَيكَ ولَكِنْ لَمْ يَرَو فِيكَ مَطْمَعَا

لَهُ رَاحَتَانِ الجُودُ والحَتفُ فِيهِمَا		أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ تَضُرَّ و تَنْفَعَا

فَقَالَ لَهُ مَعنٌ : احْتَكِمْ ، قَالَ : عَشْرَةَ آلافٍ ، فَقَالَ مَعنٌ : رَبِحْنَا عَلَيكَ بِتِسْعِينَ أَلْفاً، قَالَ: أَقِلْنِي، قَالَ: لا أَقَالَ اللَّهُ مَنْ يُقِيلُكَ[5]. هذَا هُو عَطَاءُ مَعْنٍ لِمَروَانَ،

(1) رحلة الشِّعر : (٥١٤) .
(2) السَّابق : (٥١٤) .
(3) شعر مروان : (٨٣) .
(4) شعر مروان : (٦٤) .
(5) الأغاني : (١٠ / ٧٥) .

لِمَروَانَ، فكيفَ كَانَ عَطَاءُ العَبَّاسِيِّينَ لهُ ؟ لَقَدْ كَانَ عَطَاءُ الخُلَفَاءِ العبَّاسِيِّينَ لِمَروانَ عظِيماً، ومِنْ صُورِ هَذَا العَطَاء:

١ــ دَخَلَ مَروَانُ بنُ أَبِي حَفْصَةَ معَ الشُّعَراءِ علَى الخَلِيفَةِ المَهْدِيِّ (ت: ١٦٩ هـ)، وأَنشَدَهُ بَعْدَ رَابِعٍ أَو خَامِسٍ مِنَ الشُّعَراءِ قَصِيدَتَهُ (من الكامل)[١]:

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحِيَّ خَيَالَهَا بَيضَاءُ تَخْلِطُ بِالْجَمَالِ دَلَالَهَا

قَادَتْ فُؤَادكَ فَاسْتَقَادَ ومِثْلُهَا قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصِّبَا فَأَمَالَهَا

فَأَنْصَتَ النَّاسُ حَتَّى بَلَغَ إِلَى قَولِهِ :

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا بِأَكُفِّكُمْ أَو تَسْتُرُونَ هِلَالَهَا

أَو تَجْحَدُونَ مَقَالَةً عَنْ رَبِّكُمْ جِبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا

شَهِدَتْ مِنَ الأَنفَالِ آخِرُ آيَةٍ بِتَرَائِهِمْ فَأَرَدتُمُ إِبطَالَهَا

يقُولُ مَنْ شَهِدَ ذَلِك : فَرَأَيتُ المَهدِيَّ قَدْ زَحَفَ مِنْ صَدرِ مُصَلَّاهُ ، حَتَّى صَارَ عَلَى البِسَاطِ إِعجَاباً بِمَا سَمِعَ ، ثُمَّ قَالَ : كَمْ هِيَ ؟ قَالَ : مِائَةُ بَيتٍ ، فَأَمرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلفِ دِرهَمٍ ، فَكَانَتْ هذِه أَوَّلَ مِائَةِ أَلفٍ أُعطِيَتْ فِي أَيَّامِ بَنِي العَبَّاسِ .

٢ــ مَدَحَ مَروَانُ الهَادِيَّ (ت :١٧٠ هـ) بقَصِيدَتِهِ (مِن الطَّوِيلِ)[٢] :

تَشَابَهَ يَوماً بَأْسُهُ ونَوَالُه فَمَا أَحَدٌ يَدرِي لِأَيِّهِمَا الفَضلُ

فَقَالَ لَهُ الهَادِيُّ : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيكَ ثَلاثُونَ أَلْفاً مُعَجَّلَةً أَمْ مِائَةُ أَلفٍ تُدَوَّنُ فِي الدَّوَاوِين؟ فَقَالَ لَهُ يَا أَميرَ المُؤمِنِينَ: أَنتَ تُحسِنُ مَا هُو خَيرٌ مِنْ ذَلِكَ ولكِنَّكَ نَسِيتَهُ ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : تُعَجِّلُ الثَّلَاثِينَ أَلفاً ، وتُدَوِّنُ المِائَةُ أَلفٍ فِي الدَّوَاوِينَ فَضَحِكَ وقَالَ: بَلْ يُعَجَّلَانِ جَمِيعاً، فَحُمِلَ المَالُ إِلَيهِ أَجمَعُ.

(١) شعر مروان : (٩٦) .
(٢) السَّابق : (٩٢) .

٣ــ ولَمَّا مَدَحَ الرَّشِيدَ (ت : ١٩٣ هـ) (من الطَّوِيلِ) بقَولِهِ [١]:

لَعَمْرُكَ مَا أَنسَى غَدَاةَ المُحَصَّبِ إِشَارَةَ سَلْمَى بِالْبَنَانِ المُخَضَّبِ

وقَدْ صَدَرَ الحُجَّاجُ إِلَّا أَقَلَّهُمْ مَصَادِرَ شَتَّى مَوكِباً بَعدَ مَوكِبِ

ومَا سَبَقَ يُؤكِّدُ أَنَّ مَروَانَ بنَ أَبي حَفْصَةَ قَدْ إِنْتَفَعَ بِشِعْرِهِ بَعْدَ مَعْنِ بنِ زَائِدَة الشَّيبَانِيِّ، وهذَا يَردُّ ما قِيلَ عَلَى لِسَانِ الأَصفَهَانِيِّ وابنِ خِلِّكَانَ والدُّكتُور الشَّكعَة .

ز ــ وَفَاتُهُ :

لَقَدْ دَفَعَ مَروَانُ ثَمَنَ تَعَصُّبِهِ للعَبَّاسِيِّينَ ، فَقَدْ كَانَتْ نِهَايَتُهُ عَلَى يَدِ بَعضِ العَلَوِيِّينَ الَّذِينَ غَاظَهُمْ مَا قَالَهُ مَروَانُ في العَبَّاسِيِّينَ مِنْ مَدَائِحَ ومَا ذَكَرَهُ فِي مَدَائِحِهِ مِنْ حُجَجٍ يُؤكِّدُ فِيهَا على حقِّ العَبَّاسِيِّين لا العَلَوِيِّينَ فِي الخِلافَةِ، وكَانَ ذَلِكَ في سنَةِ ١٨٢ هـ، وقَدْ ذَكَرَتْ بَعضُ المصَادرِ أَنَّ وَفَاتَهُ كَانَتْ سَنَةَ ١٨٩ هـ، ولكنَّ المَصَادرَ القَدِيمَةَ تَكَادُ تُجمِعُ علَى أَنَّ وَفَاتَهُ كَانَتْ في التَّارِيخِ الأَوَّلِ[٢].

ثَانِياً ــ بطَاقَةٌ معرِفِيَّة لمن مَعْن بن زَائِدَة الشَّيبَانِيّ (ت : ١٥٢ هـ) :

أ ــ اسمُه ونسبُه :

مَعْنُ بنُ زَائِدَةَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ زَائِدَةَ بنِ مطَرِ بنِ شُرَيكِ بنِ الصَّلْبِ _قَيس ــ بنِ شَرَاحيل بنِ هَمَّام بنِ مُرَّةَ بنِ ذُهلِ بنِ شَيبَانَ [٣].

(١) السَّابق: (٢٣) .
(٢) تَارِيخ الرُّسُل والمُلوك : للطَّبَرِيّ ، (د : ط) ، طبع ليدن ، (١٨٧٩ م) ، (ق٣ ج٧٠٧/١١) ، والعقد الفريد لابن عبدِ ربِّه ، تحقيق : أحمد أمين ، (د : ط) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، (٦ / ٧٧) ، و معجم الشُّعراء للمرزبانيّ ، (د : ط) ، دار إحياء الكتب العربيّة ، (١٩٦٠ م) ، (٣١٨) ، وشعر مروان بن ابي حفصَة : (٩) .
(٣) وفيات الأعيان : (٢ / ٢٤٤ ، ٢٤٥) .

ب ــ حياتُه :

كَانَ مَعنُ وَالِياً للأُمَويِّينَ، فَلَّما غَرَبَتْ شَمسُ دَولَتِهِمْ ، استَتَرَ منَ العبَّاسِيِّينَ؛ خَوفاً منهُمْ، لأَنَّهُ قَدْ حَارَبَهُمْ بِشَجَاعَةٍ ثُمَّ هُزِمَ ، وظَلَّ مُخْتَفِيَّاً ، حتَّى إِذَا كَانَ يومُ الهَاشِمِيَّةِ، حَارَبَ بِبَسَالَةٍ دِفَاعاً عن المنصُورِ، وهَذَا ما جَعَلَهُ يَعفُو عَنهُ، بلْ إِنَّهُ قَدْ جَعَلَهُ وَالِياً على اليَمَنِ [1].

جـ ــ أَخلاقُه:

كَانَ مَعْنُ جَوَاداً شُجَاعاً جَزلَ العَطَاءِ كثِيرَ المَعرُوفِ مُمَدَّحاً مَقْصُوداً ، ومِمَّا حُكِيَ عَنْ كَرَمِهِ : أَنَّ أَعرَابِيَّاً جَاءَ إِلَى بَابِهِ وطَالَ مُقَامُهُ ولمْ يَحصُلْ لهُ مَا كَانَ يُرِيدُ مِنْ مَعنٍ، فَعَزَمَ على الرَّحيلِ، فخَرَجَ مَعنُ رَاكِباً ، فقَامَ إِلَيهِ وأَمسَكَ بِزِمَامِ دَابَّتِهِ ، وقَالَ (من الطَّويل) :

وَمَا فِي يَدَيكَ الخَيرُ يَا مَعـنُ كُلُّـهُ ... وفِي النَّاسِ مَعـــرُوفٌ وعَنـكَ مَـذَاهِبُ

سَتَذْرِي بَنَاتُ العَمِّ مَـا قَـدْ أَتَيتَـــهُ ... إِذَا فُتِـشَتْ عِنـــــدَ الإِيَـابِ الحَقَائِـبُ

فَأَمرَ بِإِحضَارِ خَمسِ نُوقٍ مِنْ كِرَامِ إِبِلِهِ ، وأَوقَرَهُمْ لَهُ مِيرَةً وبُرَّاً وثِيَاباً ، وقَالَ لهُ انصرِفْ يابنَ أَخِي في حِفظِ اللَّهِ إِلى بَنَاتِ عَمِّكَ ، فَلَئِنْ فَتَّشْنَ الحَقَائِبَ لَيَجِدَنَّ فِيهَا مَا يسُرُّهُنَّ ، فَقَالَ لَهُ صَدَقْتَ [2].

د ــ وفَاتُه:

قُتِلَ مَعْنُ علَى يدِ بَعضِ الخَوَارِجِ ، وكَانَ مَعنُ وَالِياً على سِجِسْتَانَ، وكَان ذَلِكَ سَنَةَ ١٥٢ هـ[3] .

(١) السَّابق : (٢ / ٢٤٥ ، ٢٤٦) .
(٢) وفيات الأعيان : ابن خلِّكان ، (٥ / ٢٤٥) .
(٣) السَّابق : (٥ / ٢٤٩) .

المبحث الثَّاني

معن بن زَائِدة في شِعر مَروَان بن أبي حفصَة

رُؤيَةٌ مَوضُوعِيَّة

أولاً ـ مَدح مَعْنٍ فِي شِعرِ مَروَانَ بنِ أبي حَفصَة (ت: ١٨٢ هـ):

المَدحُ من الأغرَاضِ الشِّعريَّةِ القَدِيمَة فِي الشِّعرِ العَرَبيِّ، وهُو فِي غَالِبِهِ ثَنَاءٌ جَمِيلٌ لِمَعْرُوفٍ نَزَلَ أو لِنَوَالٍ يُنتَظَرُ، ولَقَدْ رَاجَتْ سُوقُ المَدحِ فِي عَصرِ العَبَّاسِيِّينَ، فَوَجَدنَا الشُّعرَاءَ يَمدَحُونَ الخُلَفَاءَ والوُزَرَاءَ والوُلاةَ؛ لِأَنَّهُمْ يَملِكُونَ النُّفُوذَ والمَالَ، وكَانَ هَؤلَاءِ " يَرغَبُونَ فِي إظهَارِ نُفُوذِهِمْ، وإعلانِ هَيبَتِهِمْ، وإطرَاءِ مَجدِهِمْ، فَقَرَّبُوا الشُّعَرَاءَ، وأَجزَلُوا لَهُمْ العَطَاءَ؛ لِيُعلِنُوا مَفَاخِرَهُمْ فِي النَّاسِ، ويَزِيدُوا مِن هَيبَتِهِمْ، ويَتَسَابَقُونَ فِي التَّعظِيمِ؛ لِيَحظَوا بِجَزِيلِ العَطَاءِ وعَظِيمِ الهِبَاتِ، وقَدْ انتَهَى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى المُبَالَغَةِ فِي المَدحِ"[1].

ومَروَانُ بنُ أَبي حفصَةَ مِن الشُّعراء العبَّاسِيِّينَ الَّذِينَ أَكثَرُوا فِي شِعرِهِمْ مِن المَدحِ وبِخَاصَةٍ مدحُ مَعْنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ (ت: ١٥٢ هـ)، وقَدْ مَدَحَهُ مَروَانُ بسبعِ قَصَائِدَ، جَاءَتْ القَصِيدةُ الأُولَى فِي عَشْرَةِ أَبيَاتٍ، وقَدَ جَاءَ فِي أَوَّلِهَا(مِنَ الطَّوِيلِ)[2] :

ويَومٍ عَسُـــولِ الآلِ كَأَنَّما ... لَظَى شَمْسِهِ مَشبُوبُ نَارٍ تَلَهَّبُ[3]

---

(١) الأدب العربيّ في العصر العبَّاسيّ الأوّل : د / مُحمَّد عبد المُنعِم خَفاجيّ، (ط : الأولى)، دار الجيل، (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م)، (١٥٨)، المديح والفخر بين جرير والفرزدق والأخطل : ظافِر عبد الله ، (د: ط)، (١٤٠٥ هـ - ١٤٠٦ هـ)، (١) ، العمدة في صِناعَة الشِّعر ونقده : لابن رَشِيق القيروَانيّ، (ط: الأولى)، مطبعة السَّعادة، (١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م) ، (٢ / ١٠٣) .

(٢) شعر مروان بن أبي حفصة : (١٦) .

(٣) عَسَلَ الذِّئبُ والنَّحلُ يَعسِلُ عَسَلاً و عَسَلاناً: مَضَى مُسرعاً، واضطرَبَ فِي عَدوِهِ، والمعنى فِي البَيت: يومٌ سَرِيعُ السَّراب. يُنظر اللِّسَان: (ط: دار صادر)، (١١/ ٤٤٦). الآلُ: هُو الَّذِي يكونُ ضُحَى بين السَّمَاء والأرض كَالمَاءِ. يُنظر اللِّسَانُ: (١١/ ٣٦). الرَّجُلُ المَشبُوبُ: هُو الَّذِي يَكُون أبيَضَ الوَجهِ أسودَ الشَّعر، والأصلُ مِن شَبَّ النَّارَ إِذَا أوقَدَهَا. يُنظرُ اللِّسَان: (١/ ٤٨١).

نَصبَنَا لَهُ مِنَّا الوُجُـــوهَ وكِنُّهَا عَصَائِبُ أَسمَالٍ بِهَا نَتَعَـــصَّبُ[1]

وجَاءَتْ القَصِيدَةُ الثَّانِيَّةُ فِي عَشْرَةِ أَبيَاتٍ، وقَدْ جَـاءَ فِـي أَوَّلِهَـا[2] (مـن البسيط) :

مَا يَلمَعُ البَرقُ إِلَّا حَنَّ مُغتَرِبٌ كَأَنَّهُ مِن دَوَاعِـي شَوقِهِ وَصِبُ[3]

أَهلاً بِطَيفِ لِأُمِّ السِّمطِ أَرَّقَنَا ونَحنُ لا صـدَدُ مِنهَا ولا كَثَبُ[4]

وجَاءَتْ القَصِيدَةُ الثَّالِثَةُ في ثَمَانٍ وعِشرِينَ بَيتاً، وقَدْ جَاءَ فِي أَوَّلِهَا [5](من الطَّويل)

أَرَى القَلبَ أَمسَى بالأَوَانِـسِ مُولَعا وإِنْ كَانَ مِنْ عَهدِ الصِّبَـا قَدْ تَمَتَّعَا

ولَمَّا سَرَى الهَمُّ الغَرِيـــبُ قَرَيتُهُ قِرَى مَنْ أَزَالَ الشَّكَّ عَنهُ وأَزمَعَـا

وجَاءَتْ القَصِيدَةُ الرَّابِعَةُ في خَمسَةٍ وأَربَعِينَ بَيتاً وقد جَاءَ فِي أَوَّلِها[6] (من الخفيف)

لَامَ فِـــي أُمِّ مَالِكٍ عَاذِلَاكَا ولَعَمرِ الإِلَهِ مَا أَنصَفَـــاكَا

وكِلَا عَاذِلَيكَ أَصبَـــحَ مِمَّا بِكَ خِلواً غَيرُ هَـــوَاكَا

وجَاءَتْ القَصِيدَةُ الخَامِسَةُ في تِسعَةِ أَبيَاتٍ، وقَدْ جَاءَ فِي أَوَّلِهَا[7] (مِن الكامل):

أَمسَى المَشِيبُ مِـنَ الشَّبَابِ بَدِيلا ضَيفاً أَقَامَ فَمَا يُرِيدُ رَحِـيلا

والشَّيبُ إِذَا طَـرَدَ السَّوَادَ بَيَاضُهُ كالصُّبحِ أَحـدَثَ للظَّلامِ أُفُولَا

وجَاءَتْ القَصِيدَةُ السَّادِسَةُ في أَحَدَ عشَرَ بيتاً، وقَدْ جَاءَ فِي أَوَّلِهَا[8] (من الطَّويلِ):

كَأَنَّ الَّتِي يَومَ الرَّحِيلِ تَعَرَّضَتْ لَنَا مِنْ ظِبَاءِ الرَّملِ أَدمَاءُ مُغزِلِ

---

(1) الكِنُّ : كُلُّ شَيءٍ يَقِي ويَستُرُ . ينظر اللِّسَان : (١٣ / ٣٦٠) . العَصَائِبُ : جمعُ عِصَابَةٍ ، وهي ما بَينَ العَشَرَةِ إلى الأَربَعِينَ . يُنظرُ : (١ / ٦٠٥) .
(2) شعر مروان بن أبي حفصة : (٢٠) .
(3) الوصَبُ : الوجَعُ والمَرَضُ ، والفِعلُ : وصِبَ يَوصَبُ وَصَبا ، فهُو وَصِبٌ . ينظر اللِّسَان : (١ / ٧٩٧) .
(4) الصَّدَدُ : القُربُ . يُنظرُ اللِّسَان : (٣ / ٢٤٧) .
(5) شعر مروان بن أبي حفصة : (٦٣) .
(6) السَّـــابِقُ : (٧٣) .
(7) السَّـــابِقُ : (٧٧) .
(8) السَّـــابِق : (٨٨) .

تَصُدُّ لِمَكحُولِ الْمَدَامِعِ لَابِنٍ		إِذَا خَلَّفَتْهُ خَلفَهَا الطَّرفُ يُعمِلُ

وجَاءَتْ القَصِيدَةُ السَّابِعَةُ في واحدٍ وعِشرِينَ بيتاً، وقَد جَاءَ فِي أَوَّلِهَا (مِن الكامل):

هَاجَتْ هَوَاكَ بَوَاكِرُ الأَظعَـانِ		يَومَ اللِّوَى فَظَلِلْتُ ذَا أَحزَانِ[1]

لَولَا رَجَاؤُكَ مَا تَخَطَّتْ نَاقَـتِي		عَرضَ الدَّبِيلِ ولَا قُـرَى نَجرَانِ[2]

كَمَا مَدَحَ مَروَانَ مَعناً فِي أَربَعِ مَقطُوعَاتٍ ، وقَدْ جَاءَتْ المقطُوعةُ الأُولى في بيتَين، وهُمَا[3](من الكامل) :

مَسَحَتْ رَبِيعَةُ وَجهَ مَعنٍ سَابِقاً		لَمَّا جَرَى وجَرَى ذَوُو الأَحسَـابِ

خَلَّى الطَّرِيقَ لَهُ الجِيَادُ قَواصِراً		مِنْ دُونِ غَايَتِهِ وهُـــنَّ كَوَابِي

وجَاءَت المقطُوعَةُ الثَّانِيَّة فِي ثَلاثَةِ أَبيَاتٍ، [4]وهِيَ (من البسيطِ):

مَا مِنْ عَدُوٍّ يَرَى مَعناً بِسَاحَتِهِ		إِلَّا يَظُنُّ المَنَايَا تَسـبِقُ القَدَرا

يُلفَى إِذَا الخَيلُ لَمْ تُقدِمْ فَوَارِسُـهَا		كَاللَّيثِ يَزدَادُ إِقدَاماً إِذَا زُجِرا

أَغَرُّ يُحسَـبُ يومَ الرَّوعِ ذَا لِبَدٍ		وَرداً ويَحسَبُ فَوقَ المِنبَرِ القَمَـرا

وجَاءَتْ المقطُوعةُ الثَّالِثَة في خَمسَةِ أبيَاتٍ ، وهِيَ [5](من الطَّويلِ) :

إِذَا مَا تَذَكَّرْتُ النَّظِيمَ ومُطرِقاً		حَنَنْتُ وأَبكَانِي النَّظِيمُ ومُطرِقُ

تَحِنُّ قَلُوصِي نَحوَ صَنعَاءَ إِذْ رأَتْ		سَمَاءَ الحَيَا مِنْ نَحوَ صَنعَاء تَبـرُقُ

تَحِنُّ إِلَى مَرعَى بِصَنعَاءَ مُخصِـبٍ		وشَربٍ رَوَاءٍ مَـــاؤُه لايُرَنَّـــقُ

---

(1) شعر مروان بن ابي حفصة : (١٠٦) .
(2) الدَّبِيلُ : مَوضِعٌ يُتَاخِمُ أعرَاضَ اليَمَامَةِ . معجم البلدان لياقوت الحمويّ (ط : دار صادر) ، (٢ / ٤٣٩) .
(3) شعر مَروان بن أبي حفصَة : (٢٤) .
(4) السَّـابق : (٤٤) .
(5) السَّـابق : (٦٨) .

وقَدْ وَثِقَتْ أَنْ سَوفَ يَصبَحُ رَبَّهَا إِذَا وَرَدَتْ أَحوَاضَ مَعنٍ ويَغْبُقُ
تَؤُمُّ شُرَيكِيًّا تَهَلَّلَ بالحَيَا مَخَائِلُهُ للشَّائِمِينَ فَتَصْدُقُ

وجَاءتْ المقطُوعةُ الرَّابعَة في أَربَعَةِ أَبيَاتٍ، وهِيَ [1](من البسيط) :

قَد أَمَّنَ اللَّهُ مِن خَوفٍ ومِن عَدَمٍ مَنْ كَانَ مَعنٌ لَهُ جَاراً مِن الزَّمَنِ
مَعنُ بنُ زَائِدَةَ المُوفِي بِذِمَّتِهِ والمُشتَرِي المَجدَ بالغَالِي مِنَ الثَّمَنِ
يَرَى العَطَايَا الَّتِي تَبقَى مَحَامِدُهَا غُنماً إِذَا عَدَّهَا المُعطِي مِنَ الغَبَنِ
بَنَى لِشَيبَانَ مَجداً لا زَوَالَ لَهُ حَتَّى تَزُولَ ذُرَى الأَركَانِ مِنْ حَضَنِ

هَذَا وقَدْ مَدَحَ مَروَانُ مَعناً فِي هَذَا الشِّعرِ بِهَذِهِ المَكرُمَاتِ :

١ــ شَرَفُ النَّسَبِ:

كَانَتْ العَرَبُ فِي الجَاهِلِيَّةُ تَعتَزُّ بِنَسَبِهَا وتَفخَرُ بِهِ ، وقَدْ شَاهَدنَا ذَلِكَ فِي تُرَاثِهِمْ الأَدبيِّ الشِّعريِّ والنَّثرِيِّ على حَدٍّ سَوَاء، وكَانُوا يُحِبُّونَ المَدحَ بِهَذَا النَّسَبِ، وهَذَا مَا جَعَلَ الشُّعرَاءَ فِي مَدَائِحِهِمْ يَحرِصُونَ عَلَى ذِكرِ نَسَبِ المَمْدُوحِينَ والإِشَادَةِ بِهَذَا النَّسَبِ وشَرَفِهِ. وكَانَ مَروَانُ بنُ أَبِي حَفصَةَ (ت: ١٨٢ هــ) فِي مَدَائِحِهِ يَحرِصُ على ذِكرِ شَرَفِ المَمدُوحِينَ وعَرَاقَةِ نَسَبِهِمْ، كَمَا كَانَ يَذكُرُ فِي مَدَائِحِهِ كَثِيراً من المَوَاقِفِ البُطُولِيَّةِ والأَخلاقِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ للشَّاعِرِ وقَومِهِ، وقَدْ رَأَينَا هَذَا المَنهجَ مُلتَزَماً فِي مَدَائِحِهِ للعَبَّاسِيِّينَ ومَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ (ت: ١٥٢ هــ).

فقَدْ كَانَ مَروَانُ ــ فِي مَدَائِحِه لِمَعنٍ ــ يَمدَحُهُ بِأَخلاقِهِ وفَضَائِلِهِ، وقَدْ كَانَ مَروَانُ يُؤكِّدُ دَائِماً عَلَى أَصَالَةِ هذِه الأَخلاق، وأَنَّهَا رَاسِخَةٌ فِيهِ وفِي قَومِهِ، فقَدْ ذَكَرَ فِي قَصِيدَتِهِ البَائِيَّةِ المَضمُومَةِ أَنَّ مَعناً كَانَ مَقصِداً للرَّاغِبِينَ فِي النَّدَى وأَمناً

[1] شعر مروان بن أبي حفصة : (١٠٩) .

للخَائفينَ، وكيفَ لا يكونُ كَذَلِكَ؟ ولهُ نِسَبٌ عريقٌ في الكَرَمِ والشَّجَاعَةِ، يقولُ مروَان (الطَّويل)

إِلَى بَابِ مَعنٍ يَنتَهِي كُلُّ رَاغِـبٍ　　يُرَجِّـي النَّدَى أو خَائِفٍ يَتَرَقَّبُ[1]

جَرَى سَابِقاً　مَعـنُ بنُ زَائِدَةَ الَّذِي　　بِهِ يَفخَرُ الحَيَّانِ بكرٌ وتَغلِبُ

فَبَرِّزْ حَتَّى مَا يُجَـــــارَى وإِنَّمَا　　إِلَى عِرقِهِ يُنمَى الجَوَادُ ويُنسَبُ

في الأَبيَاتِ مَدحٌ لِمَعنٍ بالكرمِ، وقَدْ أَكَّدَ مَروَانُ علَى أَنَّ هذَا الكرمَ قَديمٌ، وهذَا مَا جَعَلَهُ يَحرِصُ علَى ذِكرِ المَاضِي مَرَّتَينِ الأُولَى في قَولِهِ (جَرَى سَابِقاً)، والثَّانِيَّة في قولِهِ (فَبَرِّزْ حَتَّى مَا يُجَارَى)، وقَدْ بَلَغَ مِنْ سُمُوِّ كَرمِهِ أَنَّ بكرَ وتَغلبَ[2] يَفخَرَانِ بِهِ ،وأَنَّ فخرَهُمَا بِهِ مُتَجَدِّدٌ ودَائِمٌ ، وهَذَا سِرُّ الإِتيَانِ بالمُضَارِعِ في قَولِهِ (بِهِ يَفخَرُ الحيَّانِ بَكرٌ وتَغلِبُ)، ولا يَنسَى الشَّاعرُ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَنَّ هذَا الكرمَ لهُ مَاضٍ عَتِيقٌ، ولِذَلِكَ فَهُو يقُولُ (وإِنَّما إِلَى عِرقِهِ يُنمَى الجَوَادُ ويُنسَبُ). وإِذَا كَانَ مَروَانُ قَدْ مَدحَ مَعناً بشَرَفِ نَسَبِهِ، وقَد ذَكَرَ مِنْ هَذَا النَّسَبِ بَكرَ[3] وتَغلِبَ [4]، فَإِنَّهُ فِي مَقطُوعَتِهِ القَافِيَّةِ المضمُومَةِ يمدَحُه بجَدِّه الخَامسِ (شُرَيك)، فيقُولُ [5](من الطَّويل):

تَؤُمُّ شُرَيكِيًّا تَهَلَّل بالحَـــيَا　　مَخَائِلُهُ للشَّائِمِينَ فَتَصدُقُ[6]

---

(1) شعر مروان ابي حفصة : (١٦) .
(2) بالمَنع مِن الصَّرفِ ؛ لِلعَلَمِيَّةِ والتَّأنِيثِ ، والتَّأنِيثُ بالنَّظر إلى مَعنَى القَبِيلَةِ .
(3) قبيلة بَكرَ قبيلة عظيمَة ، تُنسَبُ إلى بَكرَ بن وائل، فيهَا الشُّهرَةُ والعَدَدُ ، ويَذكُرُ العربُ لبَكرَ مَوَاقِفَها البَطولِيَّة في يَومِ ذِي قَار ، وقَدْ انتصَرَتْ على الفُرس ، وقد خَلَّدَ العَرَبُ ذَلِكَ فِي شِعرِهِمْ وقَصَصِهم . يُنظر : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة : عمر كحَّالة ، (ط : ٨) ، مُؤسسةِ الرِّسَالة ، (١٤١٨ هـ-١٩٩٧ م) ، (١ / ٩٣) .
(4) قبيلةُ تَغلِبَ قبيلة عظيمَة تُنسَبُ إلى تَغلِبَ بن وَائِلَ ، وتُعدُّ قبيلة تَغلِبَ من القبائِلِ الَّتِي لَا يَهدأُ لهَا بَالٌ إِلَّا بالقِتَال والغَارَاتِ والغَزَوَاتِ ، فقد اشتَبَكَتْ بالقِتَال معَ كثير من القَبَائِل العربيَّةِ ، فقد خَاضَتْ مع بَكرَ عِدَّةَ حُرُوبٍ عَلَى أثر قتل جَسَّاسٍ لكُلَيبٍ ، ولمَّا دَخَلَ المغُولُ الشَّامَ سنَةَ ٦٨١ هـ ، وكَادَ المغُولُ أنْ يَهزِمُوا الشَّامِيِّينَ ، خَرَجَ عَلَيهِمْ كَمِينٌ من قَبِيلَةِ تَغلِبَ ، فَتَوَهَّمَ المغُولُ أنَّ جُنُوداً كثيرَةً قد أَحَاطَتْ بِهِمْ مِنْ قُدَّامِهِمْ ومِنْ خَلفِهِمْ . يُنظرُ السَّابق : (١ / ١٢٠) .
(5) شعر مروان بن أبي حفصة : (٦٨) .
(6) المَخَائِلُ: الَّذِي يَتَفَرَّسُ الخَيرَ في إِنسَانٍ . ينظر اللِّسَان : (١١ / ٢٣٠) . والشُّؤمُ : خلافُ اليُمن . ينظر اللِّسَان : (١٢ /٣١٤) .

ونَرَاهُ في الدَّالِيَّةِ المفتُوحَةِ يَذكُرُ أَنَّهُ أَخَذَ الكرَمَ عَنْ جَدِّهِ (شُرَيك)، ويقُولُ لَو كَانَ (شُرَيكٌ) والِداً للنَّاسِ، مَا كَانَ في النَّاسِ بخِيلٌ، يقُولُ[1] في الدَّالِيَّةِ (من الكَامِلِ):

لَو كَانَ جَدُّكُمْ شُرَيكٌ وَالِداً ... للنَّاسِ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ بَخيلاً

كَمَا أَنَّهُ في قَصيدَتِه الكَافِيَّةِ المفتُوحَةِ يَمدَحُه بشَرفِ آبَائِهِ ،ويَذكرُ أَنَّه لا أَحَدَ يُشبِهُهُ في شَرفِهِ وفَضلِهِ إِلّا أَبُوه وجدُّهُ الرَّابِعُ (مطرُ)، يقولُ[2] في هذه القَصيدَةِ(من الخفيف):

أَينَ لَا أَيــنَ مِثلُ زَائِدَةَ الخَيـــ ... ـرَاتِ إِلَّا أَبُــوهُ لَا أَينَ ذَاكَا

بِابنِ مَعـــــنٍ يُفَكُّ كُلُّ أَسِيرٍ ... مُسلَمٍ لَا يَبِيتُ يَرجُو الفِكــَاكَا

و بِهِ يُقعَصُ الرَّئِيسُ لَدَى المَــو ... تِ إِذَا اصطَكَّتْ العَوَالِي اصطِكَاكَا

مَطَرِيٌّ أَغَرُّ تَلقَاهُ بالعُــــــر ... فِ قَوُولاً وللخَـــــــنَا تَرَّاكَا

مَنْ يَرُمْ جَارَهُ يكــُنْ مِثلَ مَا رَا ... م بِكَفَّيهِ أَنْ يَنَال السِّــــمَاكَا

لَمْ تَزَلْ عِندَ مَوطِنٍ يَا بنَ مَعنٍ ... عَنْ مَقَـــــــامٍ تَقُومُهُ قَدَمَاكَا

وفِي قَصيدَتِهِ اللَّاميَّةِ المضمُومَة يُؤكِّدُ مرَّةً ثَانِيَّةً علَى شَرفِ جَدِّهِ (مطرٍ) وشَرفِ بَنِيهِ، فيقُولُ [3] (من الطَّويل):

بَنُو مَطَرٍ يَومَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُـمْ ... أُسُودٌ لَهَا فِي غِيلِ خَفَّانَ أَشبُلُ

هُمْ يَمنَعُونَ الجَارَ حَتَّــى كَأَنَّمَا ... لِجَارِهِمُ بَينَ السِّــمَاكَينِ مَنزِلُ

بِهَالِيلُ في الإِسلامِ سَـــــادُوا ولَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي الجَاهِلِيَّـــةِ أَوَّلُ

---

(1) شعر مروان بن أبي حفصة : (٧٨) .
(2) شعر مروان : (٧٤) .
(3) السَّــابق : (٨٨) .

هَمَ القَومُ إنْ قَالُوا أَصَابُوا وإنْ دُعُـــوا		أَجَابُوا وإنْ أعطَــوا أَطَابُوا وأَجزَلُوا
ومَا يَستَطِيعُ الفَاعِلـــــــــونَ فِعَالَهُمْ		وإنْ أَحسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وأَجمَلُوا
ثَلاثٌ بِأَمثَالِ الجِبَالِ حُبَاهُمُ		وأَحلامُهُمْ مِنهَا لِذَوِي الوَزنِ أَثقَــلُ

وهَذِهِ القَصِيدَةُ مِنْ أَروعِ وأَبدَعِ وأَجمَلِ وأحسنِ وأَسيَرِ مَا قَالَ مَروَانُ بنُ أَبِي حفصةَ في مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ، بَلْ مِنْ أَجمَلِ مَا قِيلَ فِي مَدَائِحِهِ، ولَقَدْ أَقرَّ لَهَا بالفضلِ كِبَارُ النُّقَادِ واللُّغَوِيِّينَ والأُدباء ، فابنُ الأعرَابيِّ (ت: ٢٣١ هـــ) يَقُولُ مُعلِّقاً عَلَى عَطَاءِ مَعنٍ لمَروَانَ وقَدْ أَعطَاهُ كثيراً: لَو أَعطَاهُ كُلَّ ما يَملِكُ مَا وَفَّاهُ حقَّهُ ، وكَانَ ابنُ الأَعرَابيِّ يختِمُ بِهِ الشُّعراءَ، ومَا دَوَّنَ لأَحدٍ مِنْ بَعدِهِ شِعراً. ويقُولُ ابنُ المُعتزِّ العبَّاسِيُّ (ت: ٢٩٦ هـــ) عن اللَّامِيَّةِ: وأَجودُ مَا قَالَهُ مَروَانُ قَصِيدَتَهُ الغَرَّاءُ اللَّامِيَّةُ ، وهي الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَى شُعَرَاءِ زَمَانِهِ ، يَمدَحُ فِيهَا معنَ بنَ زَائِدَةَ [1].

ويقُولُ [2]في مكَانٍ آخر من القصِيدَة مُنَوِّهاً بشَرفِ أَبِيهِ (من الخفيف) :

يئِسَ النَّاسُ أَنْ يَنَـــالُوا قَدِيماً		فِي المَعَالِي لِسَعيكُمْ إِدرَاكا
إِنَّ مَعناً كَمَـــــا كَسَاهُ أَبُوه		عِزَّةَ السَّابقِ الجَوَادِ كَسَاكَا
كَمْ بِهِ عَارِفاً يَخَـــالُكَ إِيَّا		هُ وطَـــــــوراً يَخَالُهُ إِيَّاكَا
بِكَ مِنْ فَضلِ بَأْسِهِ يُعرَفُ البَأْ		سُ كَمَا مِنْ نَدَاهُ نَـــــدَاكَا
كُلُّ مَنْ قَدْ رأَهُ يَعـــــرِفُ مِنهُ		نَسَمَ الخَيرِ فِيكَ حِينَ يَرَاكَا
سَبَقَ النَّاسَ إِذْ جَرَى وصَلَّيـــــ		تَ كَمَا مِنْ أَبِيهِ جَاءَ كَذَاكَا
دَانِياً مِنْ مَدَى أَبِيهِ مَـــــدَاهُ		مِثلَ مَا مِنْ مَدَاهُ أَمسَــى مَدَاكَا

(1) وفيات الأعيان : لابن خِلِّكَانَ ، (٥ / ١٩٠) .
(2) شعر مروان بن أبي حفصة : (٧٥ ، ٧٦) .

فَمَروَانُ يَبدأُ هذِهِ الأَبيَاتِ الَّتِي تَحدَّثَ فِيهَا عَنْ شَرفِ آباءِ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ بالاستفهَامِ ، وقَدْ جَاء هذَا في قَولِهِ: (أينَ لا أينَ مِثلُ زَائِدَةَ الخَيراتِ)، وهُو هُنا لَيسَ علَى حقِيقَتِهِ، وإِنَّمَا جَاءَ بِهِ الشَّاعرُ للدَّلَالَةِ علَى النَّفيِ، فآباءُ معنٍ كُرمَاء وشُرفَاءٌ، وليسَ هُنَاكَ فِي النَّاسِ مَنْ يُشبِهُهُمْ، ولكنَّ مَعناً معَ أَنَّهُ مِنهُمْ قَدْ سَبَقَهُمْ في هَذَا المَجدِ، ولكنْ نجدُ أحيَاناً في هذِه القَصيدَةِ تَنَاقُضاً، فهُو يقُولُ: (أينَ لا أينَ مثلُ زائدَةَ، إِلَّا أَبُوهُ لَا أَينَ ذَاكَا) ، ثُمَّ يقُولُ في مَكَانٍ آخَرٍ (دَانِيَا مِنْ مَدَى أَبيهِ)، وكَذَلِكَ يقُولُ: (مثلَ مَا مِن مَدَاهُ أَمسَى مَدَاكَا)، فهُو كما نَرَى يَنفِي أَنْ يكُونَ هُنَاكَ مَنْ يَجرِي جَرِيَهُ أَو يَحذُو حَذْوَه حَتَّى لَو كَانَ أَبَاهُ، لَكِنَّهُ يَعُودُ ويَذكُرُ أَنَّ ما وصَلَ إِلَيهِ الممدُوحُ مِن عُلَا وشَرفٍ كَانَ مِنْ مَدَى أَبِيهِ، ولكنَّهُ يَرجِعُ إِلَى سُنَّتِهِ الأُولَى ، ويقُولُ إِنَّ شَرفَ أَبِيهِ قَدْ استَمَدَّهُ مِنهُ ، وإِذَا كَانَ مَروَانُ في مَدحِهِ لِمَعنٍ يَرفَعُ مِنْ شَأْنِهِ علَى شَأْنِ أَبِيهِ ، فإِنَّهُ في مَدحِهِ للخَلِيفَةِ الهَادِيِّ (ت : ١٧٠ هـ) يرفَعُ مِنْ شأنِ أَبِيهِ الخَلِيفَةِ المهديِّ (ت : ١٦٩ هـ) ، فيقُولُ[1] (من الطَّويل) :

تَشَابَهَ يَومـــاً بَأْسُهُ ونَوَالُه فَمَا أَحدٌ يَدرِي لأَيِّهِمَا الفَضلُ
شَبِيهُ أَبِيهِ مَنظَـــراً وخَلِيقَةً كَمَا حُذِيَتْ يوماً علَى أُختِهَا النَّعلُ

وما جَعلَ مَروَانَ يُعلِي مِنْ شَأْنِ المَهديِّ؛ أَنَّهُ أَرَادَ مِنَ الهَاديِّ أَنْ يكُونَ مِثلَ أَبِيهِ في سَخَائِهِ وجُودِهِ، وكَأَنَّهُ كَانَ ينظُرُ إِلَى المِائَةِ أَلفٍ الَّتِي أَعطَاهَا لهُ المَهديُّ، ويُرِيدُ مِن الهَاديِّ أَنْ يحذُو حَذوَ أَبِيهِ، وإِعلاءُ شَأْنِ الأَبنَاءِ علَى الآبَاء في المدحِ مشهُورٌ في الأَدَبِ العربيِّ ؛ وقَد كَانَ ذَلِكَ فِي الغَالِبِ عِندَما يكونُ الأَبنَاءُ أَعلى شَأناً ومكَاناً مِنَ الآباء ، كَمَا شَرُفَ رسُولُ اللَّهِ ــ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ــ آبَاءَهُ وأَجدَادَهُ

(1) شعر مروان بن ابي حفصة : (٨٥) .

٢ ــ الكرم :

كَانَ مَعنٌ كَرِيماً جَواداً سَخِيًّا، وقَدْ فَاضَ كَرَمُه علَى النَّاسِ، وقَدْ عُرِفَ بِهِ فِي عَصرِ الأُمويِّينَ، وزَادَ الإقبَالُ عَلَيهِ في عَصرِ العبَّاسِيِّينَ ، وقَد ذَكَرْتُ قَبلَ ذَلِكَ صُورَةً مِنْ صُورِ كَرَمِهِ وهِي كَثِيرَةٌ، وقَدْ مَدَحَهُ الشُّعراءُ بالكَرمِ الَّذِي يَجرِي فِيهِ علَى سُنَّةِ آبَائِهِ، وشِعرُ العبَّاسِيِّينَ حَافِلٌ بهَذَا الشِّعرِ الَّذِي أَشَادَ فِيهِ الشُّعراءُ بكرمِ مَعنِ بن زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ، ومروانُ بنُ أَبِي حفصَةَ (ت: ١٨٢ هــ) كَانَ مِنْ أَكثرِ الشُّعراء حَدِيثاً عنْ كَرَمِ مَعنٍ، ولَيسَ فِي ذَلِكَ مَا يُدهِشُ، فَلَقَدْ كَانَ مروانُ مِنْ أَكثرِ الشُّعرَاء عَطَاءً ونَوَالاً مِنْ مَعَنٍ، هذَا وقَدْ جَاءَ المَدحُ بالكرمِ كثيراً في شعرِ مَروَانَ ، ولا تخلُو قَصِيدَةٌ أو مَقطُوعةٌ قَالَهَا مَروَانُ فِي مَعنٍ إِلَّا وهِي تُعظِّمُ مِنْ شَأْنِ الكرمِ عندَهُ، ومِنْ شِعرِ مَروَانَ الَّذِي جَاءَ فِي هذَا المَعنَى المَدحِيِّ، مَا جَاءَ فِي قَصِيدَتِه العَينِيَّةِ المفتُوحَةِ [1](من الطَّوِيلِ):

فَمَا بَلَغَتْ صَنعَاءَ حتَّى تَوَاضَعَتْ		ذُرَاهَا وزَالَ الجَهلُ منها وأَقلَعَا

وَمَا الغَيثُ إِذْ عَمَّ البِلادَ بَصَوبِهِ		على النَّاسِ مِنْ مَعرُوفِ مَعنٍ بِأَوسَعَا

فِي البَيتَينِ يَذكرُ مَروانُ أَنْ نَاقَتَهِ عِندَمَا عَلِمَتْ بِقُربِ القُدُومِ على مَعنْ اطمَأَنَتْ وهَدَأَتْ؛ لِأَنَّهَا عَلِمَتْ مَا عَلِمَهُ مَروَانُ مِنْ كَرَمِ مَعنٍ، وقَدْ وَصَفَ مَروَانُ مَا حَدَثَ للنَّاقَةِ عِندَمَا اقتَرَبَتْ مِنَ المَمدُوحِ بقَولِهِ: (تَوَاضَعَتْ ذُرَاهَا، وزَالَ الجهلُ، وأَقلَعَا) وهذا يدلُّ على أَنَّ ما شعُرَتْ بِهِ مِنْ رَاحَةٍ، قَدْ أَحسَّتْ بِهِ قبلَ الوُصُولِ إِلَيهِ بِوقْتٍ طَوِيلٍ وبعِيدٍ، كمَا أَنَّهُ يُشِيرُ أيضاً إِلَى كَرَمِ مَعنٍ، وقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي البَيت الثَّانِي، وهُو يَعقِدُ مقَارَنَةً رَائِعَةً بينَ الغَيثِ ومَعنٍ ، ويخلُصُ مِنهَا إِلَى سَبقِ مَعنٍ، معَ أَنَّ الغَيثَ قدْ عَمَّ البلادَ، وقَدْ جَاءَ فِي وَقتٍ كَانَ النَّاسُ فِي أَشَدِّ الحَاجَةِ إِلَيهِ، وفي

(١) شعر مروان : (٦٣).

البَيتَينِ ألفاظٌ تجعلُ الغَيثَ قَويّاً وكثيراً، ومن هذه الألفَاظِ قَولُه: (الغَيثُ، عمَّ، البلادَ، النَّاس)، فالغَيثُ ثَابتٌ ودائمٌ وعامٌ، ومع هذَا الإطرَاء للغَيثِ، فإنَّ كرمَ مَعنٍ أعمُّ وأوسعُ وأشملُ وأعرفُ وأنضرُ وأبهَى وأنقَى.

وحَديثُ مَروَانَ عَنْ كَرَمِ مَعنٍ يَأْتِي أيضاً في اللَّاميَّةِ المضمُومةِ ، وهُو في هَذَا الحديثِ يَحملُ إعزَازاً وإجلالاً وإكباراً لهَذَا الخُلُق النَّبيلِ مِن أخلاقِهِ، وقَدْ أشَادَ برَوعَتِه وجَلالَهِ، ومنْ هَذَا قَولُهُ [1](من الطَّويلِ) :

تَجَنَّبَ لَا فِي القولِ حَتَّى كَأَنَّهُ ... حَرَامٌ عَلَيهِ قَولُ لَاحِينَ تَسأَلُ

تَشَابَهَ يَومَاهُ عَلَينَا فَأَشكَلَا ... فَلَا نَحْنُ نَدري أيُّ يَومَيهِ أَفضَلُ

أَيومُ نَدَاهُ الغَمرُ أَمْ يَومُ بَأسِهِ ... ومَا مِنهُمَا إلَّا أَغرُّ مُحَجَّلُ

فقَدْ كَانَ مَعنٌ كريماً نَديّاً ، كَمَا أَنَّهُ كَانَ ذَا بَأسٍ وعِزٍّ ومَنَعَةٍ، لكنَّ أَيَّهُما كَانَ أَغرَّ وأفضَلَ وأحسَنَ؟ لقدْ كَانَ فِيهما سَبَّاقاً ومُتَقَدِّماً، وقَدْ جَاءَ مَروَانُ بالاستفهَامِ في قَولِهِ (أيومُ نداهُ أَم يَومُ بَأْسِهِ)، والاستفهامُ يَنفِي أَنْ يكُونَ لأَحَدِهِما الفضلُ على الآخرِ، كما أَنَّهُ يُؤكِّدُ علَى تَمكُّنِهِ في الكَرَمِ والبأْسِ بقَولِهِ: (وما منهُمَا إلَّا لهُ الفضلُ)، وقدْ ظَهَرَ الدَّورُ الفَاعِلُ للاستثنَاءِ فِيما سبقَ، إذْ أَنَّهُ يدلُّ على قُوَّةِ الخُلُقَين عِندَ مَعن بنِ زَائِدَةَ، كَمَا أَنَّ الشَّاعِرَ مَروَانَ يُؤكِّدُ على الوُجُودِ التَّاريخِيِّ القَديمِ لِهَاتَينِ الصِفَتَينِ، ومِنْ هُنا كَانَ إتيَانُهُ بالمَاضِي، والَّذِي جَاءَ أَكثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وهذا ما يَبدُو في قَولِهِ (تَجَنَّبَ)، (تَشَابَهَ)، (فَأَشكَلَا)، كَمَا أَنَّ الشَّاعرَ يُؤكِّدُ علَى أَنَّ الرَّاغِبِينَ فِي جُودِه لَا يَنقَطِعُونَ عَن سُؤَالِهِ، وهذا مَا أَرادَ الشَّاعرُ قَولَهُ من خلالِ ذِكرِهِ للفِعلِ (تَسأَلُ).

ويَأْتِي المدحُ بالكرمِ في قَصيدَةِ النُّونيَّـةِ المكسُورَةِ ومِـنْ ذَلِـكَ قَولُـه[2] (من الكَاملِ):

---

(1) شعر مروان : (٨٩) .
(2) شعر مروان : (١٠٨) .

أنتَ الَّذي تَرجُـو رَبِيعَـــــةُ سَـيبَهُ		وتُعِـدُّه لِنَوَائِـــــــــبِ الحَـدَثَانِ
فُتَّ الَّذِينَ رَجَوا نَـدَاكَ ولَـمْ يَنَـلْ		أَدنَى بِنَائِكَ فِي المَكَـــــارِمِ بَـانِي
إِنِّي رَأَيتُكَ بِالمَحَـــــــامِدِ مُغرَمـاً		تَبتَاعُـــــــهَا بِرَغَائِـبِ الأَثمَـانِ
فإِذَا صَنَعْتَ صَنِيـــــعَةً أَتمَمْتَهَـا		ورَبَبْتَهَـا بِفَوَائِـــــــدِ الإِحسَانِ

والشَّاعرُ يُوجِّهُ الخِطَابَ إِلَى الشَّاعرِ بقَولِهِ (أَنْتَ)، وكَأَنَّهُ أَرادَ أَنْ يقُولَ إِنَّ رَبِيعَةَ لا تَرجُو عَطَاءً مِنْ أحدٍ إِلَّا مِنكَ، لكِنَّ مَا قَالَهُ بعد ذَلكَ يُوحِي بأَنَّ رَبِيعَةَ لَمْ تَفعَلْ هَذا إِلَّا بِسَببِ الخَوفِ مِنْ حَدَثَانِ النَّوَائِبِ، وهذَا لا يُقَلِّلُ مِنْ كَرَمِهِ ، بلْ يدلُّ على عظَمَةِ هذا الكرمِ، إِذْ أَنَّهُ يُستَحْسَنُ فِي أَوقَاتِ الجَدبِ والقَحطِ ، ومعَ ذَلكَ فَإِنَّ كَلِمَةَ (تَرجُو) بِمَا فِيهَا مِنْ مَعنَى المَضَارِعِيَّةِ ، قَدْ يُفهَمُ مِنهَا أَنَّ رَبِيعَةَ ذَهَبَتْ كَثِيراً لِمَعنٍ، وسَأَلَتْهُ مِنْ سَيبِهِ ، لكنَّهُ كَانَ لا يُعطِيهَا إِلَّا بعدَ كثيرٍ مِنَ الطَّلَبِ والرَّجَاءِ، وكُنَّا نتَمَنَّى أَنْ يكونَ مَدحُه بالكرمِ الَّذِي يُبذَلُ مِنْ غَيرِ سُؤَالٍ، ومَروَانُ يُؤَكِّدُ علَى كَرمِ مَعنٍ مِنْ خلالِ إِكثَارِهِ من المؤكِّدَاتِ ، والَّتِي قَدْ تَعَدَّدَتْ ما بينَ الأسمَاء ، ومنْ هَذِهِ الأَسمَاءُ (سَيبَهُ)، (نَدَاكَ)، (بنَائِك في المَكَارمِ بَانِي)، (صنيعةً)، وهذِهِ الأسمَاءُ تدلُّ على الثُّبُوتِ والاستمرار، إِلَى الأفعَالِ المَاضِيَّةِ والَّتِي جَاءَتْ في قَولِهِ (مَنَعْتَ، وكُنتَ، فُتَّ، رَجَوا، رَأَيتُكَ)، وهِي تَدلُّ عَلَى أَصَالَةِ وعَرَاقَةِ هذِهِ الصِّفَةِ الكريمةِ عندَ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ، إِلَى أَدَوَاتِ التَّأْكِيدِ والَّتِي جَاءَتْ كثيراً في الأَبيَاتِ، ومِنهَا: (إِنِّي ، إِذَا)، وهذه الأَدواتُ التَّأْكِيدِيَّةُ تدلُّ عَلَى الوُجُودِ الحَقِيقِيِّ للكرمِ عندَ المَمْدُوحِ، وأَنَّ هذَا الكرمَ ليسَ خَيَالاً أَو أَحلاماً.

كَمَا يَأْتِي المَدْحُ بـالكرمِ فـي نُونِيَّـةٍ أُخـرى مَكـسُورَةٍ وهـيَ[1] (مـن البسيط):

(1) شعر مروان : (١٠٩) .

قَد أَمَّنَ اللَّهُ مِن خَوفٍ ومِن عَـدَمِ مَنْ كَانَ مَعنٌ لَهُ جَاراً مِن الزَّمَنِ
مَعنُ بنُ زَائِدَةَ المُـــوفِي بِذِمَّتِـــهِ والمُشتَرِي المَجدَ بالغَالِي مِنَ الثَّمَـنِ
يَرَى العَطَايَا الَّتِي تَبقَى مَحَامِـــدُهَا غُنماً إِذَا عَدَّهَا المُعطِي مِنَ الغَبَـــنِ
بَنَى لِشَيبَانَ مَجـــداً لا زَوَالَ لَهُ حَتَّى تَزُولَ ذُرَى الأَركَانِ مِنْ حَضَنِ

٣ ـ الشَّجَاعَة:

كَانَ مَعنُ بنُ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيُّ مِنْ شُجْعَانِ العَرَبِ، وكيفَ لا يكونُ شُجَاعاً؟ وهُو مَطَرِيٌّ شُرَيكِيٌّ ذُهلِيٌّ شَيبَانِيٌّ بَكرِيٌّ وَائِلِيٌّ ، وقَدْ ظَهَرَتْ هذِه الشَّجَاعَةُ في المَيَادِينِ القِتَالِيَّةِ فِي خِلافَةِ الأُمَوِيِّينَ، وكذَلِكَ كَانَ الحَالُ فِي خِلافَةِ العبَّاسِيِّين، وكَانَتْ شَجَاعَتُهُ في خلافَةِ الأُمويِّينَ سبَباً مِنْ أَسبَابِ بُغضِ العبَّاسِيِّينَ لهُ، وقَدْ بَلَغَ مِنْ هَذَا الغَضَبِ أَنَّهُمْ رصَدُوا جَائِزَةً عَظِيمَةً لِمَنْ يَأْتِي بِهِ، وكَانَ ذَلِكَ لأَنَّهُ قَاتَلَ العبَّاسِيِّينَ قِتَالاً لَا هَوَادَةَ فِيهِ فِي أَثنَاءِ صِرَاعِهِمْ معَ الأُمويِّينَ والَّذِي أَزَالَ دَولَتَهُمْ فِي نِهَايَةِ الأَمرِ، ويَسْتَتِرُ مَعنُ فترَةً ليستْ بالطَّوِيلَةِ، وعِندَما يَسمَعُ بالمُوَاجَهَاتِ الدَّامِيَةِ بينَ الخُرَاسَانِيِّينَ والعبَّاسِيِّينَ بقِيَادةِ الخَلِيفَةِ المنصُورِ(ت: ١٥٨ هـ)، وكَانَ هذِه المُوَاجَهَاتُ في مَدِينَةِ الهَاشِمِيَّةِ الَّتِي بنَاهَا الخَلِيفَةُ السَّفَّاحُ في الأَنبَارِ بالكُوفَةِ، عندَما يَسمَعُ بِهَا يَخرُجُ مُتَنَكِّراً مُعتَمّاً، وتقَدَّمَ إِلَى القَومِ، وقَاتَلَ أَمَامَ المَنصُورِ قِتَالاً أَبَانَ فِيهِ عَنْ نَجدَةٍ وشَهَامَةٍ، وفَرَّقَهُمْ، فلَمَّا أُفرِجَ عَنِ المنصُورِ، قَالَ لَهُ: مَنْ أَنتَ؟ قَالَ : أَنَا يَا أَمِيرَ المُؤمِنِين مَعنُ بنُ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيُّ ، فَأَكرَمَهُ المنصُورُ وكَسَاهُ وزَيَّنَهُ وصَارَ مِنْ خَوَاصِّهِ..[١]

(١) وفيات الأعيان : (٥ / ٢٤٥ ، ٢٤٦) .

وقَدْ تحدَّثَ الشُّعراءُ كثيراً في مَدَائِحِهِمْ لِمَعنٍ عَنْ شَجَاعَتِهِ، ومِنْ هَؤُلاءِ مَروانُ بنُ أَبي حفصَة ، الَّذِي يقُولُ[1] (من الطَّويل):

مُحَالِفُ صَولاتٍ تُمِيـــتُ ونَائِـلٌ		يَرِيشُ فَمَا يَنفَـكُّ يُرجَـى ويُرهَـبُ

فقَدْ حَالَفَ مَعنُ الصَّولاتِ، وكَأَنَّهُ عقَدَ مَعَهَا عَهداً علَى مُلازَمَتِهِ لَهَا، والحِلفُ ثَابِتٌ؛ ولِذَلِكَ جَاءَ بكلِمَةِ (مُحَالِفٍ) اسم فَاعِلٍ ، كَمَا كَانَ حَرِيصاً علَى الإعلامِ بكثرَةِ هذِهِ الصَّوَلاتِ ، وهذَا ما جَعَلَهُ يَأْتِي بجمعِ المُؤنَّثِ ، وإِنْ كَانَ فِي هذَا الجمعِ تَقليلٌ لَمَا أَرَادَ الشَّاعرُ أَنْ يُصَوِّرَه مِنْ كَثرَةِ المَعَارِك والبُطُولاتِ الَّتِي خَاضَهَا مَعنٌ ، وكَانَ يُمكِنُ لَهُ أَنْ يُحقِّقَ هَدَفَهُ وحِلمَهُ مِنْ خلالِ الجُمُوعِ الأُخرَى، وإِذَا كَانَ مَروَانُ تَحَدَّثَ في البيتِ السَّابقِ عَنْ صَولاتِ مَعنٍ وبُطُولاتِهِ ، فَإِنَّهُ فِي مَقطُوعَتِهِ الرَّائِيَّةِ المفتُوحَةِ يتحَدَّثُ عَنْ حَالِ أَعدَائِهِ في أَوقَاتِ القِتَالِ، يقُولُ[2] (من البسيط):

مَا مِنْ عَدُوٍّ يَرَى مَعناً بِسَاحَتِهِ		إِلَّا يَظُنُّ المَنَايَا تَسـبِقُ القَدَرا

يُلقَى إِذَا الخَيلُ لَمْ تُقدِمْ فَوَارِسُـهَا		كَاللَّيثِ يَزدَادُ إِقدَاماً إِذَا زُجِرا

أَغَرُّ يُحسَـبُ يومَ الرَّوعِ ذَا لِبَدٍ		وَرداً ويَحسَبُ فَوقَ المِنبَرِ القَمَـرا

ومَوقِفُ أَعدَاءِ مَعنٍ فِي سَاحَةِ القِتَالِ يُظهِرُ مَدَى مَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ مَعنٌ مِنِ قُدرَاتٍ وإِمكَانِيَاتٍ ، فَهُمْ يَرَونَ المَنِيَّةَ بِرؤيَةِ مَعنٍ، بَلْ إِنَّ رُؤيَةَ مَعنٍ تَسبِقُ القَدَرَا، وإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ مُبَالَغَةٌ غيرُ مَقبُولَةٍ، وكيفَ تُقبلُ؟ وقَدْ جَعَلَ المَنَايَا تَسبِقُ القَدرَ، وهَلْ المَنَايَا إِلَّا مِنَ القَدَرِ؟ ولكنَّهَا بِحَالٍ تُؤكِّدُ عَلَى جَسَارَةِ وإِقدَامِ مَعنٍ، ويَظهَرُ هَذَا الإِقدَامُ والتَّأَسُّدُ فِي قَولِهِ: (كاللَّيثِ يَزدَادُ إِقدَاماً)، (أَغرُّ يومَ الرَّوعِ ذَا لِبَدٍ، وَرداً)، ولِكَي نَقِفَ بِوُضُوحٍ عَلَى هَذِهِ البَسَالَةِ، لابُدَّ منْ مَعرِفَةِ حَالِ عَدُوِّهِ ، فأَعدَاءُ كثيرُونَ، ولا يُظَنُّ أَنَّ هَذِه الكَثرَةَ هَيِّنَةٌ أَو مُستَضعَفَةٌ، لكِنَّهَا كَثرَةٌ مُتَمَرِّسَةٌ مُدَرَّبَةٌ، وتَظهَرُ هَذِهِ

(1) شعر مَروَان : (١٧) .
(2) السَّـابق : (٤٤) .

الإطلالاتُ في قَولِهِ (مَا مِنْ عَدُوٍّ يَرَى مَعناً بسَاحَتِهِ ، يُلفَى إذَا الخَيلُ لَم تُقدِمْ فَوَارِسُهَا)، فكَلِمَةُ عَدوٍّ تَدلُّ علَى الكَثرَةِ معَ الاستِعدَادِ، كَمَا تُفهَمُ دَلالَةُ الكَثرَةِ مِنْ دُخُولِ مَا ومِنْ علَى عَدُوٍّ، كمَا تُعلِنُ هَذِهِ الكَثرَةُ عَنْ نَفسِهَا فِي قَولِ الشَّاعرِ (الخَيلُ ــ الفَوَارِس)، ونَرَى في الأبيات السَّابِقَة صُورَةً رَائِعَةً حَيَّةً لِوَاقِعَةٍ مِنَ الوَقَائِعِ الحربيَّةِ، وقَدْ وظَّفَ فِيهَا مَروَانُ كُلَّ الأَدوَاتِ التَّعبيريَّةِ والتَّصويريَّةِ والنَّغَميَّةِ؛ لِكَي تكُونَ هذِه الأَدَوَاتُ شَافَّةً عَمَّا هُو في الحقِيقَة ومَا هُو فِي النَّفسِ مِنْ إعجَابٍ، والحديثُ عن الصُّورةِ الجُزئيَّةِ سيكُونُ كَاشِفاً وانطِبَاعِيًّا للمَرَائِي والمسمُوعَات والأَصوات، ولو نَظَرنَا في الأَبيَاتِ لَوجَدنَا التَّجسيدَ الحيَّ، فَإنَّنَا نَرَى الحَرَكَةَ المَيدَانِيَّةَ في قَولِ الشَّاعر(عَدُوٍّ، تَسبِقُ، لَمْ تُقدِمْ، يَزدَادُ إقدَاماً)، ونسمَعُ الأَصوَاتَ العَالِيَةَ في المعرَكَةِ، وتظهرُ في قَولِهِ (إذَا زُجِرَ، ويحسَبُ فَوقَ المِنبَرِ القَمَرا). وكَما أَشَاد مَروَانُ بِشَجَاعَةِ مَعنٍ فِي المَقطُوعَةِ السَّابِقَةِ، فَإنَّهُ قَدْ أَكَّدَ عَلَيهَا في قَصيدَتِهِ النُّونِيَّةِ المكسُورَةِ، وكَانَ مِمَّا جَاءَ في هذِه النُّونِيَةِ[1] (مِن الكَامِل):

مَعنُ بنُ زَائِدَةَ الَّذِي زِيـدَتْ بِهِ ... شَرَفاً عَلَى شَرَفٍ بَنُو شَيـبَانِ

جَبـــلٌ تَلُوذُ بِهِ نِزَارٌ كُلُّهَا ... صَعبُ الذُّرَى مُتَمَنِّعُ الأَركَانِ

إنْ عُدَّ أَيَّامُ الفَعَـــالِ فإنَّمَا ... يَومَاهُ يَومُ نَدَى ويَـــومُ طِعَان

تَمضِي أَسِنَّتُهُ ويُســـفِرُ وجْهُهُ ... في الرَّوعِ عِندَ تَغَـيُّرِ الأَلوَانِ

يَكسُو الأَسِـــرَّةَ والمَنَابِرَ بَهجَةً ... ويَزِينُهَا بِجَهَـــــارَةٍ وبَيَانِ

كَلتَا يَدَيكَ أَبَا الوَلِيدِ مَعَ النَّدَى ... خُلِقَتْ لِقَائِمِ مُنصَـــلٍ وعِنَان

جَلَبَ الجِيَادَ مِنَ العِرَاقِ عَوَابِساً ... قُبَّ البُطُونِ يُقَـــدْنَ بِالأَرسَانِ

جُرداً مُحَنَّبَةً تُعَاضِدُ في السُّرَى ... بِاليَدِ كُلَّ شِمِـــلَّةٍ مِذْعَانِ

(1) شعر مروان : (١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨) .

حَتَّى أَغَرنَ بِحَضرَمَوتَ شَوَازِباً مُقْوَرَّةٌ كَكَوَاسِـــــرِ العِقبَانِ
مَطَرٌ أَبُوكَ أَبُو الأَهِـلَّةِ والنَّدَى بالسَّيفِ حَازَ هَجَـائِنَ النُّعمَان
نَفسِي فِدَاءُ أَبِي الوَلِـيدِ إِذَا عَلَا رَهَجُ السَّنَابِكِ والرِّمَاحُ دَوَانِي
مَا زِلتَ يَومَ الهَاشِمِـيَّةِ مُعلِماً بالسَّيفِ دُونَ خَلِيفَةِ الرَّحمَـانِ
فَمَنَعتَ حَوزَتَهُ وكُنـتَ وِقَاءَهُ مِنْ وَقعِ كُلِّ مُهنَّـدٍ وسِنـــَانِ

ومَروَانُ في هذِه القصيدَةِ الوَاصِفَةِ يُقَدِّمُ تَفصِيلاً لِشَجَاعَةِ مَعنٍ ، فهُو لَمْ يَكتَفِ بالحديثِ عنْ جَانبٍ مِنْ جَوَانِب الشَّجَاعَةِ ، لَكِنَّهُ يُقَدِّمُ لَحَظَاتٍ كَثِيرةً مُضِيئَةً وَضَاءَةً ثَرِيَّةً صَادِقَةً، هذِه اللَّحظَاتُ الوَضِيئَةُ قَدْ تَكُونُ مُتَنَاقَضِةً ، أَو قَدْ تكُونُ مُستَغرَبَةً، إِذْ كيفَ يُعطِي وتَندَى يَدَاهُ بجُودٍ ، ثُمَّ يَطعَنُ وتَدمَى يَدَاهُ بِدَمٍ؟ ولكنَّ مَا يَدفعُ هذَا الايهَامَ أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ قَالَ (فَإِنَّما يَومَاهُ يومُ نَدَى ويومُ طِعَان)، وقَدْ قَرَّرَ مَروَانُ حُكماً في مَطْلَعِ القَصِيدَةِ ، وهُو مِنْ وِجهَةِ نَظَرِهِ صَحيحاً وسَليماً ، لكنَّهُ يَعلَمُ جيِّداً أَنَّ هُنَاكَ مَنْ لَا يُصَدِّقُون بالأَحكَامِ الَّتِي تَأْتِي خِلواً مِنَ الأَدِلَّةِ والبَرَاهِينَ، وقَدْ فَاضَتْ القصيدَةُ بالأَدلَّةِ الصَّادِقَةِ الكَثِيرَةِ والَّتِي تأْتِي فِي إِطَارِ التَّأْكِيدِ التَّوضِيحِيِّ للحُكمِ التَّقرِيرِيِّ والَّذِي يَظهَرُ في قَول مَروان (مَعن بن زَائِدَة الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرَفاً بَنُو مَروَان)، وكَانَ مِمَّا سَاقَهُ مَروَانُ لتَقوِيَةِ قَنَاعَاتِهِ لَدَى الآخَرِين أَنَّهُ قَالَ (جَبلٌ تَلُوذُ بِهِ نِزَارُ، صَعبُ الذُرَى مُتَمَنِّعُ الأَركَانِ)، ولاشكَّ أَنَّ مَا جَعلَ لَهُ هذَا المَكَانَ السَّامِي بينَ أَبنَاء شَيبَانَ، بلْ بينَ أَبنَاء نِزَارٍ، ما كَانَ عَلَيهِ مِنْ أَخلاقٍ وفضَائِلَ ، وقَد جَاءَتْ الشَّجَاعَةُ فِي مُقَدِّمَةِ الأَخلاقِ النَّفسِيَّةِ والجَسَدِيَّةِ الَّتِي كَانَ الشَّاعِرُ مَروَانُ حَرِيصاً علَى التَّلوِيحِ بِهَا أَمَامَ الجميع، وفِي حدِيثِهِ عن شَجَاعَةِ مَعنٍ يَذكُرُ مروَانُ كُلَّ مَا يُمكنُ أَنْ لهُ صِلَةٌ بِهَا، فقَدْ ذَكرَ أَيَّامَ الحروب، والشَّجَاعَةُ لا تظهَرُ إِلَّا فِي الحُرُوبِ، ويظهرُ فِي قَولِهِ (أَيَّامُ الفَعَال..... ويومُ طِعَان)، كَمَا قَامَ بِذِكرِ الآلاتِ الكثِيرَةِ والَّتِي

تظهَرُ في الحربِ، ومن هذه الآلاتِ (تمضي أَسِنَّتُهُ)، (لِقَائِمِ مُنصُلٍ وعِنَانِ، وقع القَنَا، بالسَّيفِ حَازَ هَجَائِنَ النُّعمَان، بالسَّيفِ دُونَ خَلِيفَة الرَّحمان ، مِنْ وَقْعِ كُلِّ مُهَنَّدٍ وسِنَانِ)، وإِذَا كَانَ مَروَان قَدْ ذَكرَ الحُرُوبَ الَّتِي خَاضَهَا مَعنٌ على سَبِيلِ الإِجمَالِ، فَإِنَّهُ فِي آخِرِ القَصِيدَةِ يُشِيرُ إِلَى وَاحِدَةٍ عَلَى سَبِيلِ التَّفصِيلِ، وذلك في قَولِهِ (يومَ الهَاشِمِيَّةِ)، وهُو يومٌ ظَهَرَتْ فِيهِ شَجَاعَةُ مَعنٍ.

ثانيا ــ رِثَاء معنٍ فِي شعر مَروَان بن أبي حفصَة:

كَانَ مَعنٌ زَعيماً مِنَ الزُّعَمَاءِ الكِبَارِ مع أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الخُلَفَاءِ ولا مِنَ الوُزَرَاءِ، وقَدْ تَجَلَّتْ هذِهِ المَكَانَةُ السَّامِيَّةُ لِمَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ بَعدَ رَحِيلِهِ ، فقَدْ انطَلَقَتْ القَرَائِحُ الشِّعرِيَّةُ فِي كُلِّ مَكَانٍ شَادِيَةً صَادِحَةً بِعَظَمَتِهِ وحُبِّهِ ، كَمَا أَنَّهَا تُعلِنُ للجَمِيعِ وعَلَى المَلَأِ حُزنَهَا عَلَيهِ، ولَمْ يَكُنْ هَذَا تَجَمُّلاً ولا تَزَلُّفاً ولا رَغبَةً ولا رَهبَةً ، وإِنَّمَا كَانَ ذَلكَ إِجلالاً وإِكبَاراً وإِعزَازاً لهذه النَّفسِ العَالِيَةِ السَّامِقَةِ الشَّامخَةِ بخَيرِها وبِرِّهَا، وكَأَنَّ هَذِهِ الأَلسُنَ المُغَرِّدَةَ الصَّافِيَةَ تَدعُو مِنْ طَرفٍ خَفِيٍ إِلَى أَخلاقِ مَعنِ الفَيَّاضَةِ السَّخِيَّةِ ، ولَقَدْ كَانَ مَروَانُ بنُ أَبِي حفصَةَ مِنْ الشُّعراءِ العبَّاسِيِّينَ الَّذِينَ تَأَلَّمُوا لِرَحِيلِ مَعنٍ، وقَدْ ظَهرَ أَلَمُهُ واضِحاً فِي شعرِهِ، ولَمْ يَكُنْ حُزنُ مَروَانَ علَى مَعنٍ مِنْ أَجلِ العَطَاءِ أَو الحُظوَةِ، لكنَّهُ كَانَ وَفَاءً وعِرفَاناً بالجميلِ.

ولِمَروَان فِي رِثَاءِ مَعنٍ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ جَاءَتْ فِي أَربَعَةٍ وخَمسِينَ بيتاً، وهِيَ[1] (من الوافرِ):

مَــضَى لِــسَبِيــلِهِ مَعــنٌ وأَبقَــى ... مَكــارِمَ لَــنْ تَبِيــدَ ولَــنْ تُنَالَــا

كَأَنَّ الــشَّمْسَ يَــومَ أُصِيــبَ مَعــنٌ ... مِــنَ الإِظــلامِ مُلْبَــسَةٌ جِلَالَــا

(1) شعر مروان : (٧٩) .

ولَــهُ أَيــضاً مَقطُوعَــةٌ جَــاءَتْ فِــي ثَلاثَــةِ أَبيَــاتٍ، وهِــيَ [1] (مــن البسيط) :

يَا مَنْ بِمَطْلَعِ شَمْسٍ ثُمَّ مَغرِبِهَا　　إِنَّ السَّخَاءَ عَلَيكُمْ غَيرُ مَردُودِ
قُلْ لِلْعُفَــاةِ أَرِيحُوا العِيسَ　　مَا بَعدَ مَعنٍ حَلِيفِ الجُودِ مِنْ جُودِ
قُلْ لِلمَنِيَّةِ لَا تُبقِي عَلَى أَحَــدٍ　　إِذْ مَاتَ مَعــنٌ فَمَا مَيتٌ بِمَفقُودِ

ومَروَانُ فِي رِثَائِهِ لِمَعنٍ يَتَحَدَّثُ عَنْ :

١ــ الحُزن عَلَى مَعنٍ :

يَرحَــلُ مَعــنٌ ويَمــضِي لِــسَبِيلِهِ ، لكنَّــهُ يُبقِــي حُزنــاً لا يَــزُولُ ولا يَبِيــدُ، وقَــدْ خَلَّــدَ مَــروَانُ فِــي شِــعرِهِ الانفِعَــالِيِّ الرِّثَــائِيِّ هَــذَا الأَسَــى، يقُولُ[2] مَروَانُ (من الوافر) :

مَــضَى لِــسَبِيلِهِ مَعــنٌ وأَبقَــى　　مَكَــارِمَ لَــنْ تَبِيــدَ ولَــنْ تُنَــالا
كَأَنَّ الــشَّمسَ يَــومَ أُصِيــبَ مَعــنٌ　　مِــنَ الإِظْــلامِ مُلْبَــسَةٌ جِلَالَــا
هُو الجَبَــلُ الَّــذِي كَانَــتْ نِــزَارٌ　　تَهُــدُّ مِــنَ العَــدُوِّ بِــهِ الجِبَالَــا
وَعُطِّلَــتْ الثُّغُــورُ لِفَقْــدِ مَعــنٍ　　وقَــدْ يُــروِي بِهَــا الأَسَــلَ النِّهَالَــا
وأَظْلَــمَتْ العِــرَاقُ وأُورَثَتْهَــا　　مُــصِيبَتُهُ المُجَــلِّلَةُ اختِــلَالَا
وظَــلَّ الــشَّامُ يَرجِــفُ جَانِبَــاهُ　　لِرُكْنِ العِــزِّ حِــينَ وَهَــى فَمَــالَا
وكَــادَتْ مِــنْ تِهَامَــةَ كُــلُّ أَرضٍ　　ومِنْ نَجــدٍ تَــزُولُ غَــدَاةَ زَالَــا
فَــإِنْ يَعــلُ الــبِلادَ لَــهُ خُــشُــوعٍ　　فَقَــدْ كَانَــتْ تَطُــولُ بِــهِ اختِيَالَــا

---

(1) السَّابق : (٤٠) .
(2) السَّابق : (٧٩) .

الأَبيَاتُ تَكَادُ تُظلِمُ مِنَ الأَلَمِ لِفَقدِ مَعنٍ، وهذَا الإِظلامُ قَدْ أَصَابَ الكَونَ كُلَّهُ ، قَدْ نَالَ السَّمَاءَ والأَرضَ، فالشَّمسُ قَدْ أُلبِسَتْ جِلالاً ، والثُّغُور قَدْ عُطِّلَتْ لِفَقدِ مَعنٍ، والعِرَاقُ قَدْ أَظلَمَتْ، بلْ إِنَّهَا قَدْ أُصِيبَتْ بالاختِلالِ، وكَادَتْ أَرضُ تِهَامَةَ أَنْ تَزُولَ، ولا يخْفَى مَا فِي هَذَا الحَدِيثِ مِنْ مُبَالَغَةٍ، إِذْ فكيفَ تَلبَسُ الشَّمسُ الجِلَالَا؟ وكيفَ عُطِّلَتْ الثُّغُور لِفقدِ مَعنٍ؟ وكيفَ يُمكنُ أَنْ تُظلِمَ العِرَاقُ؟ وهَلْ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَرجِفَ الشَّامُ لِرُكنِ العزِّ الَّذِي تَهَدَّمَ ؟ ثُمَّ كيفَ لِتِهَامَةَ أَنْ تَزولَ؟ وقَدْ أَدركَ الشَّاعِرُ ذَلِكَ، وهَذَا مَا جَعَلَهُ يَأْتِي بالفِعلِ (وكَادَتْ) والَّذِي منَحَ هذِه المُبَالغَةَ شَيئاً مِن القَبُولِ، ونجِدُ فِي الأَبيَاتِ بَرَاعَةً فِي نَظْمِ الأَبيَاتِ، ودِقَّةً فِي انتِقَاء الأَفعَالِ، فَفِي أَثنَاءِ الحديثِ عنْ رَحيلِ مَعنٍ والَّذِي مرَّ عَلَيهِ وَقت ليسَ بالبعيدِ يَأْتِي بالأَفعَالِ المَاضِيَةِ، ومنْ هذِه الأَفعَالِ (مَضَى، وأَبقَى، أُصِيبَ، كَانَتْ، وعُطِّلَتْ، وأَظلَمَتْ، وأَورَثَتْهَا، وظلَّ الشَّامُ، وكَادَتْ مِنْ تِهَامَة، كَانَتْ تَطُولُ بِهِ اختِيَالَا)، ومعَ مَا فِي الأَفعَال السَّابِقَة مِنْ دَلالَة المَاضِي إِلَّا أَنَّهَا تحملُ دلالَةً قَرِيبَةً مِنْ دِلالَةِ المُضَارِعِ؛ وقَدْ سَاعَدَ علَى ذَلِكَ المُلازَمةُ بينَهَا وبينَ المُضَارِعِ الوَاقِعِ بعدَهَا ، وقَدْ جَاءَتْ الأَفعَالُ الحَاضِرَةُ بعدَ ذَلِكَ لتَدُلَّ علَى الأَثَرِ الفَادِحِ لِذَهَابِ مَعنٍ إِلَى ربِّهِ ، وهُو أَثَرٌ ظَاهِرٌ وواضِحٌ ومُتَجَدِّدٌ ، ومنْ هذِه الأَفعَالِ الثَّرِيَّةِ بِمَدلُولاتِهَا قَولُهُ (لَنْ تَبِيدَ، ولنْ تُنَالَا، نزارٌ تَهُدُّ، وقَدْ يُروِي بهَا الأَسلَ، يَرجِفُ جَانِبَاهُ ، تَزُولُ غَدَاةَ زَالَا ، تَطُولُ بِهِ اختِيَالَا)، ولا يَنسَى الشَّاعِرُ أَنْ يَأْتِيَ بالأَسمَاءِ، وهي كثيرةٌ ولَقَدْ كَانَ وجُودُهَا مُصَوِّراً للحزنِ الدَائِمِ الثَّابتِ عَلَى مَعنٍ، ومنْ هذِه الأَسمَاءِ (الشَّمسَ، الإِظلام، مُلبسَةٌ، جِلَالَا، هُو الجبلُ، العدوُّ، الجِبَالَا، الثُّغُور، الأَسل النِّهَالَا، المُجَلِّلَة اختِلَالَا، أَرضٍ). وإِذَا كَانَ مَروَانُ بنُ أَبِي حفصَةَ فِي الأَبيَاتِ السَّابِقَةِ يتحَدَّثُ عِنْ حُزنِ الكَونِ عَلَى مَعنٍ، وهُو كَمَا يَظهرُ حُزنٌ مِنَ الجَمَادَاتِ، وهِيَ لَمْ تَنَلْ شَيئاً مِنْ مَعرُوفِهِ، إِذاً فَكيفَ سَيَكُونُ الحُزنُ والحسرَةُ مِنْ الإِنسَانِ، أَو مَمَّنْ أَخَذُوا النَّوَالَ؟ مَروَانُ فِي الأَبيَاتِ القَادِمَة يَكشِفُ لَنَا عَنْ هذَا

الحُزنِ، يقولُ مَروَانُ[1](من الوافر):

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَنْ كُنتَ تَرجُو		بِهِ عَثَرَاتُ دَهـرِكَ أَنْ تُقَالَـا
فَلَستَ بِمَالِكٍ عَبَرَاتِ عَيـنٍ		أَبَتْ بِدُمُوعِـهَا إِلَّا انهِمَالَـا
وفِي الأَحشَاءِ مِنكَ غَلِيلُ حُزنٍ		كَحَرِّ النَّارِ يَشتَـعِلُ اشْتِعَالَا
كَأَنَّ اللَّيلَ وَاصَـلَ بَعدَ مَعنٍ		لَيَالِيَ قَدْ قَـرِنَّ بِهِ فَطَالَا

فِي البِدَايَةِ نَجِدُ أَنَّ مَروَانَ لا يُصَدِّقُ بِرَحِيلِ مَعنٍ ، فَهُو يَقُولُ(مَضَى لِسَبِيلِهِ مَنْ)، وهذَا يَستَدعِي إِلَى الذَّاكِرَةِ مَوقِفَ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ مِنْ انتِقَالِ الرَّسُولِ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ــ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعلَى، وإِنْ كَانَتْ المُقَارَنَةُ لَيستَ وَارِدَةً ولا مقبُولَةً ، ولكنْ جِئْتُ بِهَا فَقَطْ مِنْ أَجلِ مَقَالَةِ عُمرَ عِندما عَلِمَ بخبرِ وَفَاةِ الرَّسُولِ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ــ، فَقَدْ دُهِشَ عُمرُ مِنْ هَذَا الخبرِ، وكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يتخَيَّلُ أَنْ يُفَارِقَهُ رسُولُ اللَّهُ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ــ، ولِذَلِكَ عِندَما وَصَلَ إِلَيهِ الخبرُ، قَالَ: إِنَّ رسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ إِلَى رَبِّهِ كَمَا ذَهَبَ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ، وهَذَا أَيضاً ما يُمكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي حِرصِ مَروَانَ علَى كَلِمَةِ (مَضَى لِسَبِيلِهِ)، وكَأَنَّهُ فِي حَيرَةٍ مِنْ فِرَاقِ مَعنِ بن زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ؛ لَقَدْ كَانَ بَينَهُما ذَهَابٌ وإِيَابٌ، وبِرحِيلِ مَعنٍ لِنْ يَكُونَ هُنَاكَ ذِهَابٌ ولا إِيَابٌ، لَقَدْ كَانَ مَعنٌ غَيثاً وفَرَجاً، ليسَ لَهُ وحدَهُ، بلَ كَانَ رَبِيعاً لِكُلِّ المُجْـدِبِينَ ولِكُلِّ السَّائِلِينَ والعَافِين، لكنْ كيفَ كَانَ حُزنُ مَروَانَ علَى مَعنٍ؟ لَقَدْ كَانَ حُزنُ مَروَانَ فَرِيداً وعظيماً، ولكي نُدرِكَ حُزنَهُ المَاديَّ الَّذِي تَرجَمَ عَنْ مَعَانٍ نَفسِيَّةٍ عَمِيقَةٍ مُمتَدَّة ومُتجَذِّرَةٍ، لابُدَّ أَنْ نَقِفَ مَعَ مُفرَدَاتِهِ وأَلفَاظِهِ الَّتِي كَانَتْ بِنَاءً حيَّاً لِكُلِّ مَا فِي نَفسِهِ مِنْ تَرَاكُمَاتٍ شُعُورِيَّةٍ أَو لا شُعُورِيَّةٍ، ولَقَدْ دَلَّتْ الأَلفَاظُ اللُّغَوِيَّةُ المَاضِيَّةُ علَى تَحَقُّقِ رَحِيلِ مَعنٍ، وهذَا لا سَبِيلَ إِلَى غَيرِهِ، ومن هُنَا كَانَ مِنَ الحَتمِ أَنْ يَتَعَامَلَ

(1) السَّـابق : (٨١) .

مَروَانُ مع الوَاقِعِ الَّذِي لا مَهرَبَ مِنهُ ولا مَنجَى، ومنْ الأفعَالِ المَاضِيَّةِ الدَّالَةِ والمُرَشِّحَةِ لِمَا سَبقَ قَولُه: (مَضَى لِسَبِيلِهِ ، مَنْ كُنتَ، فَلَسْتَ بِمَالِكٍ، وَاصلَ، قُرِنَّ بِهِ، فَطَالا)، ولَمْ تَكتَفِ الأَفعَالُ المَاضِيَّةُ بالدَّلَالَةِ عَلَى مَا سَبقَ، ولكنَّهَا تُقَدِّمُ وَفَاءً قَديماً لِمَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ، هذَا الوفَاءُ كَانَ يَسِيرُ معَ الرَّحيلِ وذِكرِيَاتِهِ، وكَانَ دَليلُ هَذَا الوفَاءِ الجمُوعَ الكَثِيرةَ والَّتِي سَارَتْ جَنباً إِلَى جَنبٍ معَ الأَفعَالِ السَّابِقَةِ، ومن هذِهِ الجمُوعِ: (عَثَرَاتَ دهرِكَ، بِمَالِكٍ عَبرَاتِ عَينٍ، بِدُمُوعِهَا إِلَّا انهِمَالَا، وفِي الأَحشَاءِ مِنكَ غَليلُ حُزنٍ، لَيَالِيَ قَدْ قُرِنَ بِهِ فَطَالَا، هَمَّاً وأَحزَاناً، والجمُوعُ السَّابِقَةُ فيهَا مِنْ إِيحَاءَاتِ الحُزنِ ما لا يَخفَى، وهذا الحُزنُ حُزنٌ كبيرٌ وكثيرٌ، وقَدْ أَعَانَ الجُمُوعَ السَّابِقَةَ فِي غَايَتِهَا المصَادرُ الخُمَاسِيَّةُ والَّتِي جَاءَتْ بكثرَةٍ فِي نِهَايَةِ الأَبيَاتِ، جَاءَتْ لِتَدُلَّ علَى كَثرَةِ الدُّمُوعِ وامتِدَادِهَا بلْ واستِمرَارِهَا، ومنْ هذِهِ المصَادر قَولُه: (إِنهِمَالا، اشتِعَالَا، إِشتِغَالَا). ولَمْ يقِفْ حُزنُ مَروَان عِندَ سَفحِ الدُّمُوعِ، ولا يُمكنُ لِمثلِ مَروَانَ أَنْ يكونَ حُزنُه دُموعاً، بَلْ لَقَدْ أَورَثَهُ الحُزنُ علَى معنٍ هَمَّاً دَائِماً، وماذَا فَعَلَ الهَمُّ بِمَروَانَ، يَقُولُ مَروَانُ[1] (من الوافرِ):

لَقَدْ أَورَثَنِـــــي وبَنِيَ هَمَّاً ... وأَحزَاناً نُطِيـلُ بِهَا اشتِغَالَا

وَقَائِلَةٍ رَأَتْ جِسْـمِي ولَونِي ... مَعاً عَنْ عَهـدِهَا قُلِبَا فَحَالَا

أَرَى مَروَانَ عَادَ كَذِي نُحُولٍ ... مِنَ الهِنديِّ قَدْ فَقَدَ الصِّـقَالَا

فَقُلْتُ لَهَا الَّذِي أَنكَرْتِ مِنِّي ... لِفَجْعٍ مُصِيـبَةٍ أَنكَى وَعَالَا

وأَيَّامُ المَنُونِ لَهَا صُـرُوفٌ ... تَقَلَّبُ بِالفَتَـــى حَالًا فَحَالَا

يَرَانَا النَّاسُ بَعْدَكَ قَلَّ دَهـرٍ ... أَبَى لِجُدُودِنَا إِلَّا اغتِـــيَالَا

فَنَحنُ كَأَسهُمٍ لَمْ يُبقِ رِيشاً ... لَهَا رَيبُ الزَّمَانِ ولا نِصَالَا

---

(1) شعر مَروان : (٨١) .

فِي هَذِه الأَبيَاتِ يَصِفُ مَروَانُ مَا حَدَثَ لَهُ مِنْ أَجلِ حُزنِهِ عَلَى مَعنٍ ، فَلَمْ يَكُنْ حُزنُهُ لِيَقِفَ عِندَ الدُّمُوعِ، ولكنَّهُ قَدْ عَانَي مِنْ هَمٍّ ثَقِيلٍ أَورَثَهُ أَحزَاناً، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الأَحزَانَ قَدْ أَهزَلَتْهُ وجَعَلَتْهُ ذَا نُحُولٍ، وقَدْ حَدَثَ لَهُ هذا مِنْ زَمنٍ طَوِيلٍ، ولازمَهُ أَيضاً زَمناً طويلاً، وهَذَا مَا جَعَلَ الشَّاعِرَ يَأْتِي بالأفعَالِ المَاضِيَّةِ، ومنْ هَذِه الأَفعَالِ: (رَأَتْ جِسمِي ولَونِي، رأَتْ رَجُلاً، أَرى مَروَانَ عَادَ كَذِي نُحُولٍ)، ومعَ أَنَّهُ قَدْ تَحَدَّثَ عَنْ أَحزَانِهِ، وتحدَّثَ عَنْ أَثَرِ هَذِهِ الأَحزَانِ عَلَيهِ، إِلَّا أَنَّهُ عندَمَا أَرَادَ أَنْ يُصَوِّرَ هَذِهِ الأَحزَانَ الَّتِي عَاشَهَا والنُّحُولَ الَّذِي أَصَابَهُ، جَاءَ بصُورٍ بَاهِتَةٍ، لا تستطِيعُ أَنْ تنقِلَ لَنَا الجَوَ النَّفسِيَّ والإِحسَاسَ الوِجدَانِيَّ الَّذِي أَحسَّهُ الشَّاعِرُ وانفعَلَ بهِ، فَهُو يجعلُ نُحُولَهُ كَهِنْدِيٍّ فقَدَ الصِّقَالَا، أَو يَجعَلُهُ كَأَسهُمٍ لَمْ يُبقِ رِيشاً لَهَا رَيبُ الزَّمَانِ.

٢ ــ أَسبَاب الحُزن عَلَى مَعنٍ :

دائِماً فِي شِعرِ الرِّثَاءِ نَجدُ الشُّعرَاءَ يَبكُونَ الأَعِزَّاءَ عَلَيهِمْ ، وهَمْ فِي بُكَائِهِمْ يَذكُرُونَ مَا كَانُوا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ فِي حَيَاتِهِمْ مِنْ خِصَالٍ حَمِيدَةٍ وكَرِيمَةٍ، رَأَينَا ذَلِكَ وَاضِحاً وجَلِيّاً فِي كُلِّ شِعرِ الرِّثَاءِ فِي كلِّ العُصُور، وَجَدْنَا ذَلِكَ ظَاهِراً فِي رِثَاءِ الآبَاءِ والأَبنَاءِ والزَّوجَاتِ والخُلَفَاءِ والوُزَرَاءِ والوُلاةِ والقُضَاةِ والأُدَبَاءِ والشُّعرَاءِ، ويَبلُغُ هذَا الشِّعرُ مبلَغَهُ وتأْثِيرَهُ فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ والمُتَلَقِينَ كُلَّمَا كَانَ صَادِراً عَنْ عَاطِفَةٍ صَادِقَةٍ ومشَاعِرَ حَقِيقِيَّةٍ.

ولَقَدْ كَانَ شِعرُ مَروَانَ فِي مَعنٍ مِنَ الشِّعرِ الَّذِي يَكشِفُ عَنْ مُعَانَاةٍ حَقِيقِيَّةٍ لِفَقْدِ رَجُلٍ عظِيمٍ، كَانَ لَهُ فِي قَومِهِ وبَنِي أُمَّتِهِ أَيَادٍ كَثِيرَةٌ ، ولَمْ تُنسَ هذِه الأَيَادي، وفِي قَصِيدَتِهِ اللَّامِيَّةِ يَذكُرُ مَروَانُ أَسبَابَ حُزنِهِ عَلَى مَعنٍ، فيقُولُ [1] (من الوافر):

(1) شعر مَروَان : (٨٠) .

مَضَى مَنْ كَانَ يَحمِلُ كُلَّ ثِقلٍ ويَسبِقُ فَضلُ نَائِلِهِ السُّؤَالَا
ومَا عَمَدَ الوُفُودُ لِمِثلِ مَعنٍ ولَا حَطُّوا بِسَاحَتِهِ الرِّحَالَا
ولَا بَلَغَتْ أَكُفُّ ذَوِي العَطَايَا يَمِيناً مِنْ يَدَيهِ ولَا شِمَالَا
ومَا كَانَتْ تَجِفُّ لَهُ حِيَاضٌ مِنَ الْمَعرُوفِ مُترَعَةٌ سِجَالَا
لِأَبيَضَ لَا يَعُدُّ المَالَ حَتَّى يَعُمَّ بِهِ بُغَاةَ الخَيرِ مَالَا
فَلَيتَ الشَّامِتِينَ بِهِ فَدَوهُ ولَيتَ العُمرَ مُدَّ لَهُ فَطَالَا
ولَمْ يَكُنْ كَنزُهُ ذَهَباً ولَكِنْ سُيُوفَ الهِندِ والحَلَقَ المُذَالَا
وذَابِلَةً مِنَ الخَطِّيِّ سُمراً تَرَى فِيهِنَّ لِيناً واعتِدَالَا
وذُخراً مِنْ مَحَامِدَ بَاقِيَاتٍ وفَضلَ تُقًى بِهِ التَّفضِيلَ نَالَا
لَئِنْ أَمستَ رُوِيداً قَدْ أُذِيلَتْ جِيَاداً كَانَ يَكرَهُ أَنْ تُذَالَا
لَقَدْ كَانَتْ تُصَابُ بِهِ ويَسمُو بِهَا عَقباً ويُرجِعُهَا حَبَالَى
وقَدْ حَوَتِ النِّهَابَ فأَحرَزَتْهُ وقَدْ غَشِيَتْ مِنَ المَوتِ الظِّلَالَا

ويَذكُرُ مَروَانُ كثيراً مِنْ أخلاقِ وصِفَاتِ مَعنٍ، وفِي الأَبيَاتِ ذكرٌ لكثيرٍ مِنْ هَذِهِ الخِصَالِ، وقَدْ تَعَدَّدَتْ وتَنَوَّعَتْ هذِه الشَّمَائِلُ ، فَمِن الفَضَائِلِ المَادِيَّةِ إِلَى السِّمَاتِ النَّفسِيَّةِ والجَسَدِيَّةِ البُطُولِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ نفسَهُ تَقُولُ مَا تُرِيدُ ومَا تَشَاءُ في أَثنَاءِ حَدِيثِهَا عَنِ البُطُولاتِ والإِنجَازَاتِ المَيدَانِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ الجِهَادُ فِي سَاحَةِ المَالِ لا يَقِلُّ عَنْ حَمْلِ السِّنَانِ فِي مَيدَانِ القِتَالِ، وعَنْ المَكرُمَاتِ المَادِيَّةِ والإِنسَانِيَّةِ لأَصحَابِ الحَاجَاتِ، يَقُولُ مَروَانُ (يَحمِلُ كُلَّ ثِقلٍ، ويَسبِقُ فَضلُ نَائِلِهِ السُّؤَالَا، ومَا عَمَدَ الوُفُودُ لِمِثلِ مَعنٍ، ولَا بَلَغَتْ أَكُفُّ ذَوِي العَطَايَا يَمِيناً، ومَا كَانَتْ تَجِفُّ لَهُ حِيَاضٌ، مِن المَعرُوفِ مُترَعَةٌ سِجَالَا)، ونُلاحِظُ فِيمَا سَبَقَ كَثرَةَ الجُمُوعِ، وهِيَ مَرَّةً تَأتِي فِي الحَدِيثِ عَن كَثرَةِ الوُفُودِ، ومَرَاتٌ تَأتِي للحَدِيثِ عَنْ العَطَايَا الكَثِيرَةِ الَّتِي تُعطَى

للوُفُودِ، كَمَا أَنَّهَا تَأْتِي للدَّلَالَةِ علَى كَثرَةِ الأَيدي الَّتِي تُعطِي وتظهرُ هذِه الجُمُوعُ فِي قَولِهِ (أَكُفٌّ، لَهُ حِيَاضٌ)، وكَمَا أَجَادَ فِي اختِيَارِ الجُمُوع الَّتِي دلَّتْ علَى كَرَمِ مَعنٍ وسَخَائِهِ، أَجَادَ كَذَلِكَ فِي اختِيَارِ الجُمُوعِ المُنَاسِبَةِ فِي أَثنَاءِ الحَدِيثِ عَنْ شَجَاعَةِ مَعنٍ، ومِنْ الجُمُوعِ الَّتِي جَاءَتْ للدَّلَالَةِ علَى شَجَاعَةِ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ، كَمَا أَنَّهَا أَظْهَرَتْ عِشقَهُ للحربِ ولأَدَوَاتِ الحربِ، قَولُه (ولمْ يَكُنْ كَنزُه ذَهباً ولكنْ سُيُوفَ الهندِ والحَلَق، جِيَاداً كَانَ يَكرَهُ أَنْ تُذَالَا، مِنَ الخَطِّيِّ سُمراً. وقَدْ تَحَدَّثَ مَروَانُ فِي مَكَانٍ آخَرٍ مِن اللَّامِيَّةِ عَنْ أَخلاقِ مَعنٍ والَّتِي كَانَتْ سَبَباً مِنْ أسبَابِ الحُزنِ علَيهِ، يقُولُ مَروَان[1] (من الوافر):

فَلَهــفُ أَبِــي عَلَيــكَ إِذَا العَطَايَــا		جُعِلْــنَ مُنَــى كَــوَاذِبَ واعتِلَالَــا
ولَهــفُ أَبِــي عَلَيــكَ إِذَا الأَسَــارى		شَــكَوا حَلَقــاً بِأَســوُقِهِمْ ثِقَالَــا
ولَهــفُ أَبِــي عَلَيــكَ إِذَا اليَتَــامَى		غَــدَوا شُــعثاً كَــأَنَّ بِهِــمْ سُــلَالَا

(1) السَّابق : (٨٢).

المبحث الثَّالث

مَعن بن زَائِدَة فِي شِعرِ مَروَانَ بن أَبِي حفصَةَ

أداة فَنِيَّة

أولاً ـ اللُّغَةُ الشِّعريَّةُ :

لكُلِّ أَدِيبٍ لُغَتُهُ الخَاصَّةُ بِهِ، وهُو يَملِكُ الحُرِيَّةَ المُطلَقَةَ فِي اختِيَارِ هَذِه اللُّغَةِ الَّتِي يُشَكِّلُ مِنهَا تَجرِبَتَهُ الشُّعُورِيَّةَ، وهَذِه اللُّغَةُ المُختَارَةُ تَختَلِفُ مِنْ تَجرِبَةٍ إِلَى أُخرَى ومِنْ مَوضُوعٍ إِلَى آخَرٍ، ومعِ اختِلافِ اللُّغَةِ الشِّعرِيَّةِ فِي التَّجَارِبِ المُتَعَدِّدَةِ إِلَّا أَنَّنَا نَجِدُ أَنَّ هُنَاكَ سِمَاتٍ خَاصَّةً تَجمعُ وتُوحِّدُ وتُقَرِّبُ بَينَ هَذِه اللُّغَة، ولَيسَ هَذَا الأَمرُ خَاصّاً بِأَدِيبٍ دُونَ آخَرٍ، ولكِنَّ هَذَا مَا يُمكنُ أَنْ يُلْحظَ عِندَ الأُدبَاءِ جَمِيعاً، بَلْ إِنَّ هَذَا يُمكنُ إِدرَاكُهُ عِندَ أَبنَاءِ الأُمَّةِ جَمِيعاً، وفِي هذَا يَقُولُ الدُّكتور/ عبد العزيز عتيق (ولكنَّ الأَسَالِيبَ مَهمَا اختَلَفَتْ باختِلافِ الأَفرَادِ، وتَنَوَّعَتْ بِتَنَوّعِ الأَغرَاضِ، فَإِنَّهَا تَتَّسِمُ بِسِمَاتٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عَبقَرِيَّةِ الأُمَّةِ، ومَنطِقُ ذَلِكَ أَنَّ الصِّفَاتِ المُشتَرَكَةَ فِي آحَادِ الأُمَّةِ تَتَلاقَى وتَتَجَمَّعُ فَتُكَوِّنُ خَصَائِصَهَا الَّتِي تُمَيِّزُهَا مِنْ سِوَاهَا، وهَذِهِ الخَصَائِصُ نَفسُهَا تَنطَبِعُ فِي لُغَتِهَا ، فَتَكُون طِرَازاً عَاماً فِي كُلِّ أُسلُوبٍ....)[1].

ومَروَانُ بنُ أَبِي حَفصَةَ فِي شعرِهِ الَّذِي قَالَهُ فِي مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ كَانَ مَتَمَكِّناً مِنْ لُغَتِهِ الشِّعرِيَّةِ ، وقَدْ كَانَ هَذَا الوَعيُ ظَاهِراً فِي شعرِهِ المَدحِيِّ وكَذَلِكَ فِي شِعرِهِ الرِّثَائِي، والحديثُ عن اللُّغَةِ الشِّعرِيَّةِ في شعرِ مَروَان الَّذِي كَانَ مَوضُوعُهُ مَعنَ بنَ زَائِدَةَ يَنطَلِقُ مِنْ خِلالِ هَذِهِ المَحَاورِ الهَادِيَةِ:

(1) فِي النَّقد الأدبيّ : د / عبد العزيز عتيق ، (ط: ٢) ، دار النَّهضة العربيَّة ، (١٣٩١ هـ ـ ١٩٧٢ م) ، (١٤٦) .

١ ــ اللُّغَةُ الشِّعريَّة والفكرُ:

تَتَمَيَّزُ اللُّغَةُ الشعريَّةُ عِندَ مَروَانَ بالجَزَالَةِ والقُوَّةِ، ولكنَّ هَذِهِ الجَزَالَةَ كَانَتْ تَرِقُّ أَحيَاناً عَندَما يَكُونُ الحديثُ فِي فِكرَةٍ أَو مضمُونٍ وِجدَانِيٍّ حَزِينٍ، وتَظهَرُ هَذِه الجَزَالَةُ والفَخَامَةُ والقُوَّةُ فِي شعرِه المَدحِيِّ والرِّثَائِي ، ومِنْ شِعرِهِ الَّذِي قَالَهُ[١] فِي مَدحِ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ وتَظهَرُ فِيهِ هَذِهِ السِّمَاتُ (من الطويل) :

إِلَى المُجتَدَى مَعنٍ تَخَطَّتْ رِكَابُنَا　　تَنَائِفَ فِيمَا بَيـنَهَا ا لرِّيحُ تَلعَبُ[٢]

كَأَنَّ دَلِيلَ القَومِ بَينَ سُـهُوبِهَا　　طَرِيدُ دَمٍ مِنْ خَشيَةِ المَوتِ يَهرُبُ[٣]

بَدَأْنَا عَلَيهَا وهِيَ ذَاتُ عَجَـارِفٍ　　تَقَاذَفُ صُعراً فِي البُرَى حِينَ تُجذَبُ[٤]

فَمَا بَلَغَتْ صَنعَاءَ حَتَّـــى تَبَدَّلَتْ　　حُلُوماً وقَدْ كَانَتْ مِنَ الجَهلِ تَشغَبُ[٥]

إِلَى مَعنٍ يَنتَـــــهِي كُلُّ رَاغِبٍ　　يُرَجِّي النَّـــــدَى أَو خَائِفٍ يَتَرقَّبُ

خَرجَ مَروَانُ مِنَ اليَمَامَةِ إِلَى صَنعَاءَ، لكنْ لِمَاذَا قَصَدَ صَنعَاءَ؟ لأَنَّهُ يُرِيدُ مَعناً، وقَدْ حَدَّدَ مَروَانُ هَدَفَهُ فِي الكَلِمَةِ الأُولَى، فَقَدْ قَالَ: (إِلَى المُجتَدَى مَعنٍ)، ونُلاحِظُ أَنَّهُ وَاثِقٌ مِنْ كَرَمِ وعَطَاءِ مَعنٍ، بلْ إِنَّهُ يُؤَكِّدُ علَى ذَلِكَ، ويظهَرُ هذَا التَّأكِيدُ في اختيَارِ اسم المفعُول(المُجتَدَى)، واسمُ المفعُولِ يحمِلُ فِي طَيَّاتِهِ كَثِيراً مِن الدَّلَالَات، فَهُو يَدُلُّ عَلَى التَّأكِيدِ والثُّبُوتِ والاستمرَارِ مِنْ دَلَالَةِ الاسميَّةِ، ويدلُّ عَلَى المُبَالَغَةِ مِنْ صِيغَةِ المفعُول، كَمَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يقُولَ ذَلِكَ مِن خِلالِ التَّصرِيحِ باسمِهِ، إِذاً فَمَعنٌ كرِيمٌ، وهذَا مَا دَفَعَهُ إِلَى القِيَامِ بهَذِهِ الرِّحلَةِ الطَّوِيلَةِ والشَّاقَّةِ، والمُعَانَاةُ فِي

---

(١) شعر مروان : (١٦) .
(٢) تنائفُ : مفردُهَا : تَنُفٌ ، وهِي المَفَازَةُ أو الصَّحراء. يُنظر اللِّسَان : (٩ / ١٨) ، دار صَادر . لغِبَ القومُ : تَعِبُوا وأَعيَوا، واستعَارَ بَعضُ العربِ ذَلِكَ للرِّيح . يُنظر اللِّسَان : (١ / ٨٠٩) .
(٣) السُّهُوبُ : المفرد : السُّهبُ ، وهُو المُستَوِي مِن الأَرض ، وقِيلَ سُهُوبُ القَلاةِ نَوَاحِيهَا الَّتِي لا مَسلكَ لهَا . يُنظر اللِّسَان : (١ / ٤٧٦) .
(٤) العجَارِيفُ : مفردُهَا : العَجرَفَةُ والعَجرَفِيَّةُ ، الجَفوَةُ فِي الكَلام ، والخُرقُ فِي العَمَل ، والسُّرعَةُ فِي المَشي ، وقِيلَ أَنْ تَأخُذَ الإِبلُ فِي السَّير بِخُرقٍ إِنْ كَلَّتْ. يُنظر اللِّسَان : (٩ / ٢٣٤) .
(٥) الشَّغبُ : الخِلافُ ، والمَيلُ عَن الحقِّ إِلى البَاطِل . اللِّسَان : (١ / ٥٠٤) .

هَذِه الرِّحلَةِ قَاسِيَةٌ ، وقَدْ استطَاعَ مَروَانُ بلُغَتِهِ الشِّعرِيَّةِ المُوحِيَةِ القَوِيَّةِ الجَزِلَةِ المَتِينَةِ والَّتِي نَحتَهَا مِنْ بِيئَتِهِ العرَبِيَّةِ أَنْ يُصَوِّرَ لَنَا مشَقَّاتِ السَّفرِ، وهِي مَشَقَّاتٌ كَانَتْ رَأْيَ العَينِ لَهُ ولِمَنْ كَانُوا مَعَهُ، ومِنْ الأَلفَاظِ الَّتِي كَانَتْ مُصَوِّرَةً للجَو الفِكريِّ والشُّعُوريِّ والنَّفسِيِّ للشَّاعرِ مَروَانَ ومَنْ كَانَ مَعَهُ قَولَهُ (تَخطَّتْ)، وهِي تَدلُّ علَى الصُّعُوبَةِ الشَّدِيدَةِ فِي السَّيرِ، وهَذَا يُفهَمُ مِنْ الزِّيَادَةِ الأَصلِيَّةِ فِي بِنيَةِ الكَلِمَةِ ، كمَا أَنَّهَا تَدُلُّ علَى الزَّمَنِ الطَّوِيلِ الَّذِي قَطَعَتْهُ هَذِهِ الرِّكَابُ حَتَّى وَصلَتْ إِلَى المُجْتَدَى مَعنٍ، وهَذَا مَا تُوحِي بِهِ الدَّلالَةُ المَاضِيَّةُ للفِعلِ السَّابِق ، وكذَلِكَ الأَفعَالُ المَاضِيَّةُ الَّتِي جَاءَتْ بعدَ ذَلِكَ ، ومنْ هَذِهِ الأَفعَال (بَدَأْنَا، فَمَا بَلَغَتْ، تَبَدَّلَتْ، كَانَتْ)، ومِنْ الأَلفَاظِ الَّتِي جَاءَتْ دَقِيقَةً فِي مَكَانِهَا ومُصَوِّرَةً للجَوِّ النَّفسِيِّ والشُّعُوريِّ قَولُهُ أيضاً (رِكَاب، تَنَائف، الرِّيح، سُهُوب، عَجَارِف، البُرى)، ونُلاحِظُ أَنَّ الأَلفَاظَ السَّابِقَةَ جَاءَتْ فِي صِيغَةِ الجَمعِ، وقَد جَاءَ جَمعٌ واحدٌ مِنْ هَذِهِ الجُمُوعِ للدَّلالَةِ علَى كَثرَةِ الرِّكَابِ الَّتِي ركِبَهَا القَومُ الَّذِينَ خَرجُوا فِي هَذِهِ الرِّحلَةِ ومنهُمْ مَروَان، وهَذَا الجمعُ هُو (رِكَابٌ)، وهُو يَدلُّ علَى كَثرَةْ هؤلَاءِ القَوم أَيضاً ، بَينَمَا جَاءَتْ الجُمُوعُ الأُخرى للدَّلَالَةِ علَى كَثرَةِ المَفَاوزِ والبِيدِ والسُّهُوبِ الَّتِي قَطَعَتْهَا هَذِهِ الرِّكَابُ، وكَذَلِكَ جَاءَ الشَّاعرُ مَروَانُ بِأَلفَاظٍ تَصِفُ مُعَانَاتَهُ ومنْ مَعَهُ، ومنْ هَذِهِ الأَلفَاظِ قَولُهُ (كَأَنَّ دَلِيلَ القَوم..... طَرِيدُ دَمٍ مِنْ خَشيَةِ المَوتِ يَهرُبُ)، والأَلفَاظُ السَّابِقَةُ فِيهَا تَجسِيدٌ وإِبرَازٌ للمُعَانَاةِ، وقَدْ كَانَ للتَّشبِيهِ دَورٌ كَبِيرٌ فِي هَذَا الإِظهَارِ، وإِذَا كَانَ دلِيلُ القومِ قَدْ أَصبَحَ طَرِيداً فِي هَذِهِ المَفَاوزِ الكَثِيرَةِ، فكَيفَ يكونُ حَالُ الَّذِينَ لا يَعرِفُونَ شَيئاً عَنْ هَذِهِ المَفَاوز؟ وقَدْ يُظَنُّ أَنَّ هَذِهِ الصُّعُوبَاتِ كَانَتْ فِي وَقتٍ ثُمَّ انتَهَتْ، ولكنَّ هَذِهِ الأَلفَاظَ (تَلغَبُ، يَهرُبُ، تُجْذَبُ، تَشْغَبُ) تَقُولُ غَيرَ ذَلِكَ، فَهِي تَدلُّ علَى التَّجَدُّدِ المُتَكَرِّرِ لِهَذِهِ الأَحدَاثِ ، وَإِذَا كَانَتْ اللُّغَةُ الشِّعرِيَّةُ لِمَروَانَ فِي الأَبيَاتِ السَّابِقَةِ جَزِلَةً، بلْ وخَشِنَةً، فقَدْ كَانَ ذَلِكَ لِنَقْلِ صُورَةٍ حَيَّةٍ للممْدُوحِ، ولا شكَّ أَنْ هَذِهِ الصُّورَ المُؤلِمَةَ سيكُونُ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي

قَدرِ العَطَاءِ ، ومِمَّا يَدلُّ علَى تَمكُّنِ مَروَانَ مِنْ لُغَتِهِ الشِّعريَّةِ ، أَنَّهُ قَدْ تَحَوَّلَ بِلُغَتِهِ مِن الفَخَامَةِ إِلَى السُّهُولَةِ والرِّقَّةِ فِي الأَبيَاتِ الَّتِي انتَهَى فِيهَا إِلَى الإِشَادَةِ بكرمِ ونَدَى مَعنٍ، وتَبدأُ هَذِهِ الأَبيَاتُ بقَولِهِ (من الطَّويلِ):

إِلَى مَعنٍ يَنتَـــــهِي كُلُّ رَاغِبٍ		يُرَجِّي النَّـــــدَى أو خَائِفٍ يَتَرقَّبُ

فِي هَذَا البَيتِ تَكَادُ تَختَفِي الأَلفَاظُ الثَّقِيلَةُ ، ولكنْ يظهَرُ مَكَانَهَا الحُرُوفُ الشَّدِيدَةُ، ومِنهَا الجيمُ المُشَدَّدَةُ فِي (يُرَجِّي)، وهِي تَدلُّ علَى الرَّغبَةِ القَويَّةِ فِي العَطَاءِ، ومنهَا القَافُ المُشَدَّدَةُ فِي (يَترقَّبُ)، وهِي تَدلُّ علَى القَلقِ الَّذِي يَبحَثُ عنْ الأَمنِ فِي رِحَابِ مَعنٍ، بلْ إِنَّ كَلِمَةَ (يَترقَّبُ) تحملُ فِي دَاخِلِهَا ثِقَةً فِي حُصُولِ هَذَا الأمنِ، وكيفَ لايكونُ كَذَلِكَ؟ وقَدْ تَأَثَّرَ بالمضمُونِ القُرآني فِي ذِكرِ هَذِهِ الكَلِمَةِ، فقَدْ جَاءَتْ فِي قِصَّةِ مُوسَى عِندَمَا خَرَجَ مِنْ مِصرَ، وقَدْ أَعلَمَهُ الرَّجُلُ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَقصَى المَدِينَةِ يسعَى أَنَّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِهِ، ويَذْهَبُ مُوسَى إِلَى أَرضِ مَدينَ، وفِي أَرضِ مَدينَ يكونُ الخيرُ لِمُوسَى، وهَلْ هُنَاكَ خَيرٌ أَعظَمُ مِن النُّبُوةِ، ومِن الزَّوَاجِ بِبِنْتِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ شُعَيب؟ فَمَروَانُ يَرجُو الخَيرَ لَهُ ولكُلِّ رَاغِبٍ، والأَمنَ لِكُلِّ خَائِفٍ، كَمَا نَرَى فِي الشَّطرِ الأَوَّلِ الكثيرَ مِن حُرُوفِ الإِظهَارِ، ومِنْ هَذِهِ الحُرُوفِ الهمزةُ فِي (إِلَى)، والعَينُ فِي (معن)، والهَاءُ فِي (يَنتَهِي)، والغَينُ فِي (راغِبٍ)، والخَاءُ فِي قَولِهِ (خَائِفٍ)، وكَأَنَّها قَدْ جَاءَتْ لِتُصَوِّرَ لَنَا اللَّحظَةَ الَّتِي دَخَلَ فِيهَا الوَافِدُونَ علَى مَعنٍ، وأَخَذَ كُلُّ واحدٍ مِنهُمْ فِي الإِعلانِ عَنْ حَاجَتِهِ.

ومِثلُ هَذِهِ اللُّغَةِ الشِّعريَّةِ القَويَّةِ والَّتِي نَجِدُ خَلَالَهَا أَلفَاظاً رَقِيقَةً عَذْبَةً تَظهَرُ كَثِيراً فِي شعرِ مَروَانَ بنِ أَبِي حَفصَةَ، ونَرَى هَذِهِ اللُّغَةَ الشِّعريَّةَ فِي قَولِهِ[1] (من البسيطِ):

(1) شعر مَروَان : (٢٠) .

كَفَـــى القَبَائِلَ مَعنٌ كُلَّ مُعضِلَةٍ يُحمَى بِهَا الدِّينُ أَو يُرعَى بِهَا الحَسَبُ
كَنْزُ المَحَامِدِ والتَّقــوَى دَفَاتِرُهُ ولَيسَ مِنْ كَنزِهِ الأَورَاقُ والذَّهَبُ
أَنتَ الشِّهَابُ الَّذِي يُرمَى العَدُوُّ بِهِ فَيستَنِيرُ وتَخبـــــُو عِندَهُ الشُّهُبُ
بَنُو شُرَيكٍ هُمُ القَــومُ الَّذِينَ لَهُمْ فِي كُلِّ يومٍ رِهَانٌ يُحـــــرِزُ القَصَبُ
إِنَّ الفَوَارِسَ مِنْ شَيبَــانَ قَدْ عُرِفُوا بالصِّــدقِ إِنْ نَزَلُوا والمَوتِ إِنْ رَكِبُوا
قَدْ جَرَّبَ النَّاسُ قَبلَ اليَــومِ أَنَّهُمُ أَهلُ الحُلُومِ وأَهلِ الشَّغبِ إِنْ شَغَــبُوا
قُلْ لِلجَوَادِ الَّذِي يَســعَى ل يُدرِكَهُ أَقصِرْ فَمَالَكَ إِلَّا الفَــوتُ والطَّلَبُ

والمَدحُ بالمَعَانِي الإِسلامِيَّةِ يَأْتِي فِي شعرِ مَروَانَ الَّذِي قَالَهُ فِي مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرٍ، وفِي الأَبيَاتِ السَّابِقَةِ تَظهَرُ هَذِهِ المَعَانِي الشَّرِيفَةُ وبِقُوَّةٍ، وهِيَ بَلَا شَكٍّ تَسمُو بِمَكَانَةِ مَعنٍ وتَعلُو بِهَا، فَهُو يَحمِي الدِّينَ، وهُو يَرعَى الحَسَبَ، وهُو كَنزُ المَحَامِدِ، ودفتَرُ التَّقوَى، كَمَا ذَكَرَ مَروَانُ لِمَعنٍ فَضَائِلَ أُخرى دِينِيَّةً لَهُ تَارِيخٌ مَجِيدٌ فِي حَيَاةِ العَرَبِ الأَخلاقِيَّةِ، وقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الأَخلاقَ فِي إِطَارِ الحَدِيثِ عَنْ أَخلاقِ قَومِهِ بَنِي شَيبَانَ، ومِنْ هَذِهِ الأَخلاقِ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ: (مِنْ شَيبَانَ قَدْ عُرِفُوا بالصِّدقِ إِنْ نَزَلُوا)، (أَنَّهُمْ أَهلُ الحُلُومِ)، ونُلاحِظُ كَثَافَةَ الجُمُوعِ فِي الأَبيَاتِ، وهِيَ فِي الغَالِبِ جُمُوعُ تَكسِيرٍ، وهَذِهِ السِّمَةُ نُشَاهِدُهَا فِي شعرِ مَروَانَ بِصِفَةٍ عَامةٍ، ولكِنَّهَا أَكثَرُ وُجُوداً فِي شعرِهِ الَّذِي قَالَهُ فِي مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ، ومِنْ هَذِهِ الجُمُوعِ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ (كَفَى القَبَائِلَ مَعنٌ كُلَّ مُعضِلَةٍ) ، ونُلاحِظُ أَنَّ اسمَ مَعنٍ يَقَعُ بينَ جَمعَينِ الأَوَّلُ (القَبائِل)، والثَّانِي (كُلُّ)، والجمعُ الأَوَّلُ يدلُّ علَى الزَّعَامَةِ الكَبِيرَةِ والوَاسِعَةِ الَّتِي نَالَهَا مَعنٌ، فَهِيَ زَعَامَةٌ عَلَى القَبَائِلِ، فَمَعَ الأَنَفَةِ العربيَّةِ الَّتِي تَرفُضُ السِّيَادَةَ مِنْ خَارِجِهَا، لكنَّهَا قَبِلَتْ سِيَادَةَ وحِمَايَةَ ورِعَايَةَ مَعنٍ؛ وذَلِكَ لأَنَّ الدِّينَ الإِسلامِيَّ غَيَّرَ كَثِيراً مِنْ أَفكَارِهَا وأَخلاقِهَا وعَادَاتِهَا، كَمَا أَنَّ مَعناً

كَانَ يَتَمَتَّعُ بُكلِّ مُقَوِّمَات القِيَادَةِ والسِّيَادَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي التَّاريخِ، وصنَعَتْ العَجَائِبَ، ونحنُ نبحثُ عَنْ هَذِهِ الزَّعَامَاتِ الحَقِيقِيَّةِ الَّتِي تَتَحَمَّلُ المَغَارِمَ ولا تَبحثُ عَنْ المَغَانِمِ، فَلَقَدْ تَحَمَّلَ مَعنٌ كُلَّ مُعضِلَةٍ ، وتَتَوَالَى الجُمُوعُ لِتُؤكِّدَ زَعَامَةَ مَعنٍ عَلَى كُلِّ القَبَائِلِ، كَمَا أَنَّهَا تُؤكِّدُ علَى رِيَادَةِ قَبِيلَتِهِ بَينَ القَبَائِلِ، ومن الجُمُوعِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ أَجلِ هذِهِ المَعَانِي، قَولُهُ (المَحَامِد، دَفَاتِرُهُ ، الأَورَاقُ والذَّهَبُ ، بَنُو شُرَيك هُمُ القَومُ، إِنَّ الفَوَارِسَ مِنْ شَيبَانَ، النَّاسُ، أَهلُ الحُلُومِ، وأَهلُ الشَّغبِ إِنْ شَغَبُوا، ومَا يَقُولُهُ مَروَانُ بنُ أَبِي حَفصَةَ عَنْ فَضلِ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ وقَومِهِ أَمرٌ قَدْ يكونُ مِنهُ عَجَبٌ أَو دَهشَةٌ؛ لأَنَّ الكَثِيرِينَ قَد لا يُسَلِّمُون لَهُ بِمَا يَقُولُ ، وهَذَا مَا جَعَلَهُ يَأْتِي بِكَثِيرٍ مِنَ المُؤكِّدَاتِ ، ومِنْ هَذِهِ المُؤكِّدَاتِ قَولُهُ (هَمُ القَومُ)، وقَولُهُ (إِنَّ الفَوَارِسَ مِنْ شَيبَانَ)، وقَولُه (قَدْ جَرَّبَ النَّاسُ)، (أَنَّهُمْ أَهلُ الحُلُومِ)، وقَولُه (أَقصِرْ فَمَالَكَ إِلَّا الفَوتُ والطَّلَبُ) ، ومعَ إِدرَاكِ مَروَانَ لِقِيمَةِ الأَدوَاتِ التَّأْكِيدِيَّةِ فِي النَّصِ الأَدبِيِّ ، ولِقِيمَتِهَا أَيضاً فِي السُّمُوِّ بِهِ وإِنجَاحِهِ، كَانَ هَذَا الحِرصُ عَلَيهَا ، وبالتَّدقِيقِ فِي هَذِهِ الأَدوَاتِ وَمَا أَوحَتْ بِهِ مِنْ مَعَانٍ فِكرِيَّةٍ ومَعرِفِيَّةٍ، نجدُ أَنَّ مَروَانَ قَدْ جَاءَ بِأَدَاةٍ رُبَّمَا فُهِمَ مِنهَا خِلافَ مَا أَرَادَ ، وقَدْ ظَهَرَ ذَلِكَ فِي قَولِهِ (إِنَّ الفَوَارِسَ مِنْ شَيبَانَ قَدْ عُرِفُوا ، بالصِّدقِ إِنْ نَزَلُوا والمَوتِ إِنْ رَكِبُوا)، فَجَاءَ مَروَانُ بِإِنْ، وإِنْ فِيهَا مَعنَى الشَّكِّ والتَّردُّدِ، ومِثْلُ هَذَا المَعنَى الَّذِي يُفهَمُ مِنْ (إِنْ)، قَدْ يَذْهَبُ بِمَا أَرَادَ إِثبَاتَهُ مِنْ صِدقِ قَومِهِ إِنْ نَزَلُوا ، وبِحِرصِهِمْ عَلَى المَوتِ إِنْ رَكِبُوا، وكَانَ يُمكِنُ لِمَروَانَ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى مَا أَرَادَ التَّأْكِيدَ عَلَيهِ مِنْ إِتيَانِهِ بـــ (إِذَا) فِي مَكَانِ (إِنْ) وكَمَا يَبدُوا فاللُّغَةُ الشِّعرِيَّةُ قَوِيَّةٌ فَخمَةٌ فِيهَا جَلالٌ ولَهَا رَهبَةٌ، وقَدْ أَخذَتْ هَذَا النَّسجَ مِن المَعَانِي القَوِيَّةِ الَّتِي تَدُورُ بِدَاخِلِهَا، ومعِ هَذِهِ القُوَّةِ نشعُرُ بسُهُولَةِ هَذِه اللُّغَةِ الشِّعرِيَّةِ وقُربِهَا مِن نُفُوسِنَا ومَشَاعِرِنَا.

وإذَا كَانَتْ اللُّغَةُ الشِّعريَّةُ فِيما سَبقَ عِندَ مَروَانَ فِي شعرِهِ فِي مَعنٍ قَدْ جَنَحَتْ إِلَى القُوَّةِ، فَإِنَّهَا فِي شِعرِهِ الَّذِي رَثَى فِيهِ مَعناً قَدْ مَالَ بِهَذِهِ اللُّغَةِ إِلَى السُّهُولَةِ واليُسرِ، ونجِدُ ذَلِكَ وَاضِحاً فِي الأَبيَاتِ الَّتِي أَظهَرَ فِيهَا جَزَعَهُ عَلَى رَحِيلِهِ ، يَقُولُ مَروَانُ (من الوافر):

أَقَمْـــنَا بِالْيَمَـــامَةِ إِذْ يَئِسْنَا ... مُقَـــاماً لَا نُرِيدُ لَهُ زِيَالَا

وقُلْنَا أَيــنَ نَرْحَلُ بَعدَ مَعْـــنٍ ... وقَـــدْ ذَهَبَ النَّـــوالُ فَلَا نَوَالَا

فَإِنْ تَذْهَـــبْ فَـــرُبَّ رِعَالِ خَيلٍ ... عَوَابِسَ قَدْ كَفَفْتُ بِهَا رِعَـــالَا[1]

وقَومٍ قَدْ جُعِـــلْتَ لَهُمْ رَبِيعـــاً ... وقَومٍ قَدْ جُعِـــلْتَ لَهُمْ نَكَالَا

فَمَا شَهِدَ الوَقَائِعَ مِنكَ أَمْـــضَى ... وأَكْرَمُ مَحْتِداً وأَشَـــــدُّ بَالَا

سَيَذْكُرُكَ الْخَلِيفَـــــةُ غَيرَ قَالٍ ... إِذَا هُـــــوَ فِي الأُمُورِ بَلَا الرِّجَالَا

ولَا يَنسَى وَقَائِعَكَ اللَّـــــوَاتِي ... عَلَى أَعدَائِهِ جُعِـــــلْتَ وَبَالَا

ومُعْتَرِكاً شَهِـــدْتَ بِهِ حِفَاظاً ... وقَدْ كَرِهَـــــتْ فَوَارِسُهُ النِّزَالا

حَبَاكَ أُخُـــــــو أُمَيَّةَ بِالْمَرَاثِي ... مَعَ المِـــــــدَحِ اللَّوَاتِي كَانَ قَالَا

أَقَامَ وكَانَ نَحـــــوَكَ كُلَّ عَامٍ ... يُطِيلُ بَوَاسِـــطَ الرَّحلِ اِعتِقَالَا[2]

٢ ــ الزَّمَنُ والحَدَثُ واللُّغَةُ الشِّعريَّةُ:

شِعرُ مروَانَ بن أَبِي حَفصَةَ فِي مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانيِّ مَرَّ بِمَرحَلَتَينِ: المَرحَلَة الأُولى: وكَانَتْ فِي حَيَاةِ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ، وكَانَ مَروَانُ فِي هَذِهِ المَرحَلَةِ مَادِحاً، المَرحَلَة الثَّانِيَّة: وكَانَتْ بَعدَ رَحِيلِ مَعنٍ، وكَانَ مَروَانُ فِيهَا بَاكِياً،

(١) الرِّعَالُ : مُفرَدُ : الرَّعلة ، وهِيَ القِطعَةُ مِن الخَيل لِيستْ بالكَثِيرَةِ ، وقِيلَ أَوَّلُهَا ومُقَدَّمُهَا ، وقِيلَ القِطعَةُ مِن الخَيل قَدر العِشرِينَ ، وكَذَلِكَ رِعَالُ القَطا . يُنظرُ : اللِّسَان : (١١ / ٢٨٦) .

(٢) اعتِقَالُ الرَّحل : بَقَاؤُهُ عَلَى ظَهر نَاقَتِهِ ، وعَقَلَ البَعِيرَ يَعقِلُهُ عَقلاً : ثَنَى وَظِيفَهُ مَعَ ذِرَاعَهُ، وشَدَّهُمَا فِي وَسَطِ الذِّرَاع ، وكَذَلِكَ النَّاقة . اللِّسَان : (ج ١١ مَادة عَقَل).

وقَدْ كَانَ مَروَانُ فِي شِعرِهِ المَدْحِيِّ والرِّثَائِيِّ مِمَّنْ يُجِيدُ فِي اختِيَارِ الزَّمَن الَّذِي يَتَنَاسَبُ مَعَ الحَدَثِ، فَهُنَاكَ أَحدَاثٌ قَامَ بِهَا مَعنٌ فِي المَاضِي، فَكَانَ يُنَاسِبُ هَذِهِ الأَحدَاثَ الزَّمَنُ المَاضِيُّ؛ لِأَنَّ المَاضِيَّ فِي هَذِهِ الحَالَةِ هُو الأَقدرُ عَلَى تَصوِيرِ هَذَا الحَدَثِ، وَدَلَالَةُ المَاضِيِّ فِي مَقَامِ المَدحِ أَو الرِّثَاءِ سَتَكُونُ مُؤكِّداً لِجَلَالِ مَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ مَعنٌ مِنْ كَرِيمِ الخِصَالِ والأَخلاقِ، كَمَا أَنَّهُ سيُعطِي هَذِهِ المَكرُمَاتِ الأَصَالَةَ والعَرَاقَةَ والعُمقَ التَّارِيخِيَّ، وهُنَاكَ أَحدَاثٌ كَانَتْ فِي المَاضِيِّ، لَكِنَّهَا مَازَالَتْ مَوجُودةً ومُتَجَدِّدَةً، فَكَانَ مِن الأَبلَغِ والأَفضَلِ التَّعبِيرُ عَنْ هَذِهِ الأَحداثِ بالمُضَارِعِ ، وهُنَاكَ أَحدَاثٌ وَقَعَتْ ولكنَّ ارتِبَاطِهَا بالزَّمَنِ قَدْ يُقَلِّلُ مِنْ قُوَّةِ اتِّصَافِ المَمدُوحِ بِهَا ، كَمَا أَنَّ ارتِبَاطِهَا بالزَّمَنْ قَدْ يُحَدِّدُ حُدُوثَهَا عِندَ المَمْدُوحِ بِهَذَا الزَّمنِ، وهَذَا قَدْ يَذْهَبُ بِمَا قَامَ وكَانَ المَدحُ مِنْ أَجلِهِ وهُو الإِعلاءُ مِنْ شَأْنِ المَمْدُوحِ.

وللوُقُوفِ عَلَى مَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ مَروَانُ مِنْ قُدرَةٍ شِعرِيَّةٍ فَائِقَةٍ كَانَتْ هَذِهِ القُدرَةُ تُرشِدُهُ إِلَى الزَّمَنِ الَّذِي يَتَنَاسَبُ مَعَ أَفكَارِه ومَعَ الأَحدَاثِ الَّتِي عَاشَهَا مَعنُ بنُ زَائِدَةَ، ومِنْ الشِّعرِ الَّذِي أَجَادَ فِيهِ مَروَانُ فِي إِحدَاثِ هَذِهِ المُوَاءَمَةِ بَينَ الزَّمنِ والحَدَثِ مَا قَالَهُ [1] فِي مَدحِ مَعنٍ (من البسيط):

قَد أَمَّنَ اللَّهُ مِن خَوفٍ ومِن عَـدَمِ ... مَنْ كَانَ مَعنٌ لَهُ جَاراً مِن الزَّمَنِ

مَعنُ بنُ زَائِدَةَ المُـــوفِي بِذِمَّتِـــهِ ... والمُشتَرِي المَجدَ بالغَالِي مِنَ الثَّمَـنِ

يَرَى العَطَايَا الَّتِي تَبقَى مَحَامِـــدُهَا ... غُنماً إِذَا عَدَّهَا المُعطِي مِنَ الغَبَـــنِ

بَنَى لِشَيبَانَ مَجـــداً لا زَوَالَ لَهُ ... حَتَّى تَزُولَ ذُرَى الأَركَانِ مِنْ حَضَنِ

فِي الأَبيَاتِ يَمدَحُ مَروَانُ بنُ أَبِي حَفصَةَ مَعناً، وهُو فِي هَذَا المَدحِ يَذكُرُ أَيَادِيَه، وهِي كَثِيرَةٌ، وقَدْ أَنطَقَتْ هَذِهِ الأَيَادِي مَروَانَ؛ شُكراً عَلَى مَا قَدَّمَ مَعنٌ، وأيضاً

(1) شعر مروان : (١٠٩) .

انتِظَاراً وأملاً لِمَا هُو قَادِمٌ، ولِكَي يَتَمَكَّنَ مَروَانُ مِنْ تَحقِيقِ أَمَلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ أَجلِهِ، تَرَكَ مَروَانُ اليَمَامَةَ، وتَرَكَ فِيهَا يَمَاماً كثيراً، وكَانَ يُرَاوِدُهُ فِي خُرُوجِهِ عَطَاءُ مَعنٍ وكَرَمُهُ ، ومِنْ أَجْلِ أَنْ يَنجَحَ فِي سَعيِهِ لابُدَّ أَنْ يُجيدَ فِي مَدحِهِ وثَنَائِهِ، ولَقَدْ أَجَادَ مَروَانُ وأَحسَنَ فِي هَذَا المَدحِ، ومِنْ أَمَارَاتِ هَذَا النَّجَاحِ أَنَّهُ كَانَ دَقِيقاً فِي اختِيَارِ الزَّمنِ المُنَاسِبِ لِأَحداثِ تَجرِبَتِهِ المَدحِيَّةِ، فَهُو عِندَمَا يَذكُرُ إِنجَازَاتِ مَعنٍ لِقَومِهِ، يَأْتِي بالزَّمَنِ المَاضِيِّ، ومِنْ الكَلِمَاتِ الدَّالَةِ علَى هَذَا الزَّمَنِ قَولُه (أَمَّنَ اللَّهُ مِنْ خَوفٍ...)، وقَولُه (مَنْ كَانَ مَعنٌ لَهُ جَاراً مِن الزَّمنِ)، إِذَا عَدَّهَا المُعطِي مِنَ الغَبَنِ)، (بَنَى لِشَيبَانَ مَجداً)، (لا زَوَالَ لَهُ)، وهذِهِ الكَلِمَاتُ ذَاتُ الدَّلالَةِ المَاضِيَّةِ قَدْ رَسَّخَتْ لِهَذِهِ الأَفعَالِ الَّتِي قَامَ بِهَا مَعنٌ وأَنَّهَا قَدِيمَةٌ، وعِندَمَا يُرِيدُ أَنْ يُؤَكِّدَ عَلَى تَجَدُّدِ عَطَائِهِ القَدِيمِ وتَجَدُّدِ الحَمدِ عَلَيهِ، يَأْتِي بالأَفعَالِ المُضَارِعِيَّةِ، ومِنْ هَذِهِ الأَفعَالِ (يَرَى، تَبقَى، تَزُولَ)، وهَذِهِ الأَفعَالُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَطَاءَ مَعنٍ قَدِيمٌ، لكنَّهُ أَيضاً يَتَجَدَّدُ كُلَّمَا كَانَ هُنَاكَ مَنْ يُرِيدُ هَذَا العَطَاءَ، فالمُضَارِعُ يَدُلُّ على الحُدُوثِ فِي الحَاضِرِ والبَقَاءِ إِلَى المُستَقبَلِ، وكَذَلِكَ الحَالُ عِندَ الحَدِيثِ عَنْ المَجدِ الَّذِي أَقَامَهُ مَعنٌ لِقَومِهِ بَنِي شَيبَانَ ، فَالمَجدُ قَدِيمٌ ؛ لِدَلَالَةِ الفِعلِ (بَنَى) عَلَى ذَلِكَ، وهَذَا المَجدُ سَيبقَى؛ لِدَلَالَةِ الفعلِ (لا زَوَالَ لَهُ)، وكَذَلِكَ لِدَلالَةِ الفعلِ (حَتَّى تَزُولَ)، كمَا نَجِدُ فِي الأَبيَاتِ كَثِيراً مِن الكَلِمَاتِ الَّتِي جَاءَتْ بِلَا زَمَنٍ، ومِنْ هَذِهِ الكَلِمَات (مِنْ خَوفٍ ومِنْ عَدَمٍ ، جَاراً مِن الزَّمَنِ، المُوفِي بِذِمَّتِهِ، والمُشتَرِي الحَمدَ بالغَالِي مِن الثَّمَنِ، مَجداً)، فَهَذِهِ الكَلِمَاتُ بِمَا فِيهَا مِنْ دَلَالَةِ الاسميةِ، تُوحِي بالثُّبُوتِ والدَّوامِ، وهَذَا يُظهِرُ فَهْمَ مَروَانَ للأَزمِنَةِ، وفَهْمَهُ لِأَبعَادِ تَجرِبَتِهِ الفِكرِيَّةِ والمَعرِفِيَّةِ والنَّفسِيَّةِ ، فقَدْ كَانَ مَروَانُ مُدرِكاً للأَحدَاثِ الَّتِي يُحَاكِيهَا بِأَلفَاظِهِ، فقَدْ كَانَ يَعلَمُ جَيِّداً أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الأَحداثِ مَا يَجِبُ أَنْ يُنقَلَ بِلفظِ المَاضِي؛ لِحُدُوثِ هَذَا الحَدثِ فِي هَذَا الزَّمَنِ، وكَانَ يَعلَمُ أَنَّ هُنَاكَ مِن الأَحداثِ ما يَجِبُ أَنْ يَظهَرَ فِي ثَوبِ المُضَارِعِ؛ لِأَنَّ هَذَا الحدَثَ قَدْ حَدَثَ فِي الحَاضِرِ،

ومَازَالَ حُدُوثُهُ فِي المُستَقبَلِ مُتجَدِّداً ، كَمَا أَنَّهُ كَانَ عَلَى وَعيٍ بِقِيمَةِ الاسمِيَّةِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى ثُبُوتِ الأَحدَاث، وهَذَا مَا جَعَلَهُ يَحرِصُ عَلَيهَا.

وتَظهَرُ المُواءَمَةُ بينَ الزَّمَنِ والحَدَثِ كثيراً فِي شِعرِ مَروَانَ، ومِنْ هَذَا القَبِيلِ قَولُه [1] (مِن الكَامِلِ) :

جَبَـــــلٌ تَلُوذُ بِهِ نِزَارٌ كُلُّهَا		صَعبُ الذُّرَى مُتَمَنِّـعُ الأَركَانِ
إِنْ عُدَّ أَيَّامُ الفَعَـــــالِ فإِنَّمَا		يَومَاهُ يَومُ نَدَى ويَـــومُ طِعَانِ
تَمضِي أَسِنَّتُهُ ويُســـفِرُ وجْهُهُ		فِي الرَّوعِ عِندَ تَغَـيُّرِ الأَلوَانِ
يَكسُو الأَسِـــرَّةَ والمَنَابِرَ بَهجَةً		ويَزِينُهَا بِجَهَـــــارَةٍ وبَيَانِ
كَلتَا يَدَيكَ أَبَا الوَلِيدِ مَعَ النَّدَى		خُلِقَتْ لِقَائِمِ مُنصَـــلٍ وعِنَانِ

٣ ــ الأَسمَاءُ وظِلَالُهَا فِي اللُّغَةِ الشِّعرِيَّة:

كَانَ مَروَانُ فِي شِعرِهِ الَّذِي قَالَهُ فِي مَعنِ بنِ زَائِدَةَ حَرِيصاً عَلَى ذِكرِ كَثِيرٍ مِنْ الأَسمَاءِ ، وقَدْ تَعَدَّدَتْ هَذِهِ الأَسمَاءُ مَا بَينَ أَسمَاءٍ للأَشخَاص، إِلَى أَسمَاءِ الأَمَاكِنِ ، وقَدْ كَانَ ذِكرُ مَروَانَ لِهَذِهِ الأَسمَاءِ دَلِيلاً عَلَى حُبِّهِ وتَعَلُّقِهِ الشَّدِيدِ بِهَا ، ومَنْ يَقرَأُ شِعرَهُ فِي مَعنٍ يَجِدُ عَدَداً كَبِيراً مِنْ هَذِهِ الأَسمَاءِ .

أ ــ أَسمَاءُ الأَشخَاصِ فِي شِعرِ مَروَان:

مِنْ أَسمَاءِ الأَشخَاصِ الَّتِي جَاءَتْ فِي شِعرِ مَروَان :

ــ مَعن بن زَائِدَة:

وقَدْ جَاءَ هَـذَا الاسـمُ كثيـراً فِـي شِـعرِهِ؛ وهَـذَا يَـدُلُّ عَلَـى الرَّغبَـةِ الـشَّدِيدَةِ فِـي عَطَائِـهِ ونَوَالِـهِ وبَخَاصَـةٍ فِـي شِـعرِهِ المَـدحِيِّ ، كَمَـا أَنَّـهُ

(1) شعر مروان : (١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨) .

يَدُلُّ عَلَى الحُـزنِ الـشَّدِيدِ وهَـذَا مَـا يَظهَـرُ فِـي شِـعرِهِ الرِّثَـائِيِّ ، وقَـدْ جَاءَ ذِكـرُ مَعـنٍ فِـي شـعرِ مَـروَانَ الَّـذِي قَالَـهُ فِيـهِ تِـسْعاً وعِـشرِينَ مَرَّةً ، ومِنْ هَذَا مَا جَاءَ فِي قَولِهِ[1] (من الطَّوِيلِ) :

إِلَى المُجتَدَى مَعْنٍ تَخَطَّتْ رِكَابُنَا تَنَائفَ فِيمَا بَينَهَا الرِّيـحُ تَلعَبُ

كَأَنَّ دَلِيلَ القَـوم بَينَ سُهُوبِهَا طَرِيدُ دَمٍ مِنْ خَشيَةِ المَوتِ يَهرُبُ

ومِنهُ أَيضاً (من البسيط)[2] :

كَفَى القَبَائِلَ مَعـنٌ كُلَّ مُعضِلَةٍ يُحمَى بِهَا الدِّينُ أَو يُرعَى بِهَا الحَسَبُ

ومِنهُ أيضاً فِي الرِّثَاءِ[3] (من الوافرِ):

وَمَا عَمَـدَ الوُفُودُ لِمِثلِ مَعنٍ ولا حَطُّوا بِسَاحَتِـهِ الرِّحَالَا

ـ قَومُ مَعنٍ :

مَعْنُ بنُ زَائِدَةَ مِنْ قَبِيلَةِ بَكرٍ، وهِيَ تَضُمُّ فُرُوعاً كَثِيرَةً ، مِنهَا شَيبَانُ ، ويَدخُلُ تَحتَ شَيبَانَ بَنُو مَطَرٍ، وبنُو شُرَيكٍ ،ولَقَدْ كَانَ مَروَانُ فِي شِعرِهِ دَائِمَ الذِّكرِ لِكَثِيرٍ مِنْ الأَجدَادِ التَّارِيخِيِّينَ لِمَعنِ بنِ زَائِدَةَ ؛ وهُو بِذَلِكَ يَتَقَرَّبُ إِلَى مَعنٍ بِذِكرِهِمْ، فَهُو يَعلَمُ جَيِّداً أَنَّ مَعناً كَانَ مُحِبّاً لِقَومِهِ ، ولِذَلِكَ فَهُو عِندَما يُمدَحُ بِهِمْ فَإِنَّ هَذَا يُرضِيهِ ، وفِي رِضَاهُ إِحيَاءٌ لِرجائه فِي العَطَاءِ والمَالِ ، وقَدْ جَاءَ ذِكرُ بَنِي مَطَرٍ فِي شعرِهِ مَرَّتَينِ ، مِنْ ذَلِكَ قَولُهُ[4] (من الطَّوِيلِ) :

بَنُو مَطَرٍ يَـومَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ أُسُودٌ لَهَا فِي غِيلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ

كَمَا جَاءَ ذِكرُ بَنِي شُرَيكٍ فِي شِعرِهِ مَرَّتَين، ومِنْ ذَلِكَ قَولُهُ[5] (من البسيط):

---

(1) السَّـابق : (١٦) .
(2) السَّـابق : (٢٠) .
(3) السَّـابق : (٨٠) .
(4) السَّـابق : (٨٨) .
(5) السَّـابق : (٢٠) .

بَنُو شُرَيكٍ هُمُ القَومُ الَّذينَ لَهُمْ		فِي كُلِّ يَومٍ رِهَانٍ يُحرَزُ القَصَبُ

كَمَا جَاءَ ذِكرُ بَنِي شَيبَانَ فِي شِعرِهِ ثَلاثَ مَرَّات، ومنْ هَذَا قَولُه[1] (من البسيط):

إنَّ الفَوَارِسَ مِنْ شَيبَانَ قَدْ عُرِفُوا		بالصِّدقِ إنْ نَزَلُوا والمَوتِ إنْ رَكِبُوا

ب ـ أسمَاءِ الأَمَاكِنِ فِي شعرِ مَروان:

مِنْ الأَمَاكِنِ الَّتِي كَانَتْ تَأْتِي كَثِيراً فِي شِعرِ مَروَان (صَنعَاء)؛ وذَلِكَ لِأَنَّ مَعناً كَانَ وَالِياً للعبَّاسِيِّينَ عَلَى اليَمَنِ، وكَانَ مَروَانُ يَذْهَبُ إِلَيهِ كَثِيراً فِي حَاضِرَةِ حُكمِهِ، وكَانتْ هَذِهِ المَدِينَةُ بَشِيرَ خَيرٍ عَلَيهِ؛ ولِذَلِكَ فقَدْ كَانَ يَحمِلُ لَهَا فِي قَلبِهِ كُلَّ إِعزَازٍ، ومِنْ شِعرِ[2] مَروَانَ الَّذِي يَذكُرُ فِيهِ صَنعَاءَ (من الطَّوِيلِ):

تَحِنُّ قَلُوصِي نَحوَ صَنعَاءَ إِذْ رَأَتْ		سَمَاءَ الحَيَا مِنْ نَحوِ صَنعَاءَ تَبرُقُ

تَحِنُّ إِلَى مَرعَى بِصَنْعَاءَ مُخصِبٍ		وشَـــرْبٍ رَوَاءٍ مَاؤُه لا يُرَنَّقُ

وقَولُهُ[3] (من الطَّوِيل) :

فَمَا بَلَغَتْ صَنعَاءَ حَتَّى تَوَاضَعَتْ		ذُرَاهَا وزَالَ الجَهلُ عَنْهَا وأَقلَعَا

ثَانِياً ـ الصُّورة الشِّعريَّة:

فِي الشِّعرِ لابُدَّ مِن الخَيَالِ، "والخَيَالُ هُو المَلَكَةُ الَّتِي يَستَطِيعُ بِهَا الأُدَبَاءُ أَنْ يُؤَلِّفُوا صُوَرَهُمْ، وهُمْ لَا يُؤَلِّفُونَهَا مِنْ الهَوَاء، إِنَّمَا يُؤَلِّفُونَهَا مِنْ إِحسَاسَاتٍ سَابِقَةٍ لَا حَصرَ لَهَا ، تَختَزِنُهَا عُقُولُهُمْ وتَظَلُّ كَامِنَةً فِي مُخَيِّلَتِهِمْ، حَتَّى يَحِينَ الوَقتُ ، فَيُؤَلِّفُوا مِنهَا الصُّورَةَ الَّتِي يُرِيدُونَهَا، صُورَةٌ تُصبِحُ لَهُمْ؛ لِأَنَّهَا مِنْ عَمَلِهِمْ وخَلقِهِمْ..[4]..".

---

(1) السَّـــابق : (٢٠) .
(2) السَّـــابق : (٦٨) .
(3) السَّـــابق : (٦٣) .
(4) فِي النَّقدِ الأدبِي : د / شَوقِي ضَيف ، (ط : ٩) ، دار المعارف ، (١٦٧) .

والصُّورَةُ الشِّعرِيَّةُ تَنقَسِمُ إِلَى:

أولاً- الصُّورُ الجُزئِيَّةُ :

هَذِهِ الصُّورُ تَأْتِي فِي أَشكَالٍ كَثِيرَةٍ، فَنَرَاهَا فِي صُورَةِ التَّشبِيهِ، أَو فِي صُورَةِ الاستِعَارَةِ، وقَدْ نَرَاهَا فِي صُوَرٍ أُخرَى، وللتَّشبِيهِ قِيمَةٌ فَنِيَّةٌ فِي العَمَلِ الفَنِّيِّ الأَدَبِيِّ وبِخَاصَةٍ العملُ الشِّعرِيُّ؛ "فَهُو عُنصُرٌ فَنِّيٌّ قَوِيٌّ فِي التَّعبِيرِ يَعتَمِدُ عَلَى قُوَّةِ التَّصوِيرِ والتَّمثِيلِ والمُحَاكَاةِ والتَّشخِيصِ والتَّجسِيمِ، وهُو يَدُلُّ عَلَى اتِّسَاعِ الخَيَالِ وسُمُوِّهِ، ومَا قَدْ يَكُونُ لَدَى صَاحِبِهِ مِنْ مَوَاهِبَ تَتَّسِعُ لَهُ فِي القَولِ وتَتَعَمَّقُ الأَشيَاءَ، وهُو نوعٌ مِن الوَصفِ لَيسَ عَادِيّاً ، فَهُو يُقَرِّبُ المَوصُوفَ.[1]...". والتَّشبِيهُ مِنْ الصُّورِ الجُزئِيَةِ الَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِي الشِّعرِ الغِنَائِيِّ؛ " لِأَنَّ الشَّاعرَ فِي الشِّعرِ الغِنَائِيِّ يَكُونُ جَيَّاشَ العَاطِفَةِ جَيَشَاناً قَلَّمَا عُنِيَ فِيهِ بِالمُشَابَهَاتِ والمُقَارَنَاتِ الَّتِي تَفِدُ عَلَى ذِهنِ الكُتَّابِ وخَيَالِهِمْ فِي أَوقَاتِ التَّأَمُّلِ والهُدُوءِ.[2]". وإِذَا كَانَ التَّشبِيهُ قَلِيلَ الظُّهورِ فِي الشِّعرِ الغِنَائِيِّ ، فَإِنَّ الاستِعَارَةَ مِن الأَلوانِ البَيَانِيَّةِ المَجَازِيَّةِ الَّتِي تَشِيعُ فِي الشِّعرِ الغِنَائِيِّ؛ " لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُلائِمُ ثَورَةَ العَاطِفَةِ وحِدَّةَ الوِجدَانِ، فَتَخرُجُ الكَلِمَاتُ مُلْتَهِبَةً حَادَّةً.[3]".

ومَروَانُ بنُ أَبِي حَفصَةَ فِي شِعرِهِ الَّذِي قَالَهُ فِي مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَحرِصُ عَلَى الإِكثَارِ مِن التَّشبِيهَات ؛ وذَلِكَ لِطَبِيعَةِ الشِّعرِ الغِنَائِيِّ ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُ تَشبِيهَاتٌ رَائِعَةٌ وبَدِيعَةٌ ، وقَدْ كَانَتْ هَذِهِ التَّشبِيهَاتُ فِي مُعظَمِهَا مِن تَشبِيهِ المَحسُوسِ بِالمَحسُوسِ ، ومِنْ التَّشبِيهَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي شِعرِ [4]مَروَانَ (من البسيط) :

---

(1) فِي البلاغةِ العَرَبِيَّةِ : د / مُحمَّد مُصطفى هَدَّارَه ، (ط : ١)، دار العلم للملايين، (١٤٠٩ هـ- ١٩٨٩ م)، (٤٠) .
(2) فِي النَّقدِ الأدبيْ : د / ضَيف ، (١٧١) .
(3) السَّابق: (١٧١) .
(4) شعر مَروَان : (٢٠) .

كَنزُ المَحَامِـــــدِ والتَّقوى دَفَاتِرُهُ		ولَيسَ مِنْ كَنزِهِ الأَورَاقُ والذَّهبُ
أَنتَ الشِّهَابُ الَّذِي يُرمَى العَدوُّ بِهِ		فَيَستَنِيرُ وتَخبـــُو عِندَهُ الشُّهُبُ

البَيتَانِ مِنْ قَصيدَةٍ فِي مَدحِ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ، والشَّاعرُ مَروَانُ فِيهَا يَذكُرُ بَعضَ مَا كَانَ يَتَّصِفُ بِهِ مَعنٌ مِنْ أَخلاقٍ وفَضَائِلَ ومَكرُمَاتٍ ، وقَدْ ذَكرَ مِنْ هَذِهِ المَكرُمَاتِ أَنَّهُ يَعشَقُ كَنزَ الحَمدِ والثَّنَاءِ أَكثَرَ مِنْ عِشقِهِ لِكَنزِ الأَورَاقِ والذَّهبِ، وهَذِهِ صِفَةُ الأَخيَارِ والصَّالِحينَ والعُظَمَاءِ، كَمَا أَنَّهُ يَصِفُهُ بالقُوَّةِ والشَّجَاعَةِ ، وقَدْ جَاءَ الشَّاعرُ بالتَّشبِيهِ لِبَيَانِ هَذِهِ الشَّجَاعَةِ، ويظهَرُ ذَلِكَ فِي قَولِهِ (أَنتَ الشِّهَابُ)، وهَذَا التَّشبِيهُ تَشبِيهٌ بَلِيغٌ، والتَّشبِيهُ البَلِيغُ مِنْ أَقوَى أَنواعِ التَّشبِيهَاتِ؛ فَهُو يُوحِي بِقُوَّةِ الاتِّحَادِ والتَّشَابُهِ بَينَ الطَّرَفينِ، حَتَّى يُخَيَّلُ للسَّامِعِ أَو للقَارِئِ أَنَّ المُشَبَّهَ قَدْ أَصبَحَ فَرداً مِنْ أَفرَادِ المُشَبَّهِ بِهِ، وهذَا يُنَاسِبُ مَقَامَ المَدحِ الَّذِي يَقُومُ عَلَى الخَيَالِ والمُبَالَغَةِ، ونُلاحِظُ أَنَّ الطَّرَفَينِ مَحسُوسَان، وهَذَا أَقوَى فِي قَصدِ البيَانِ والتَّوضِيحِ الَّذِي جَاءَ التَّشبِيهُ مِنْ أَجلِهِ.

ومِنْ هَذِهِ التَّشبِيهَاتِ أَيضاً مَا جَاءَ فِي قَولِهِ[1] (من الكَامِلِ) :

أمسَى المَشِيـــبُ مِن الشَّبَابِ بَدِيلَا		ضَيـــــفاً أَقَامَ فَمَا يُرِيدُ رَحِيلَا
والشَّيبُ إِذْ طَـــرَدَ السَّوَادَ بَيَاضُهُ		كَالصُّبـــــحِ أَحدَثَ للظَّلامِ أُفُولَا
إِنَّ الغَـــوَانِيَ طَالَمَا قَتَّـــــلْنَنَا		بِعُيُونِهِـــنْ ولَا يَدِينَ قَتِيـــــلَا
مِنْ كُلِّ آنِســـــَةٍ كَأَنَّ حِـــجَالَهَا		ضُمِّنَ أَحورَ فِي الكِنـــَاسِ كَحِيلَا
أَردَينَ عُروَةَ والمُرَقِّـــــشَ قَبلَهُ		كُلٌّ أُصِيبَ وَمَا أَطَاقَ ذُهُـــــولَا
ولَقَدْ تَرَكْـــــنَ أَبَا ذُؤَيبٍ هَائِماً		ولَقَدْ تَبَلْنَ كُثَيِّـــــــراً وجَمِيلَا
وتَرَكْنَ لِابنِ أَبِي رَبِيعَةَ مَنـــطِقاً		فِيهِنَّ أَصبَـــــحَ سَائِراً مَحمُولَا

(1) شِعر مَروَان : (٧٧) .

إِلَّا أَكُنْ مِمَّن قَتَـــــــلْنَ فَإِنَّنِي مِمَّـــــــنْ تَرَكْنَ فُؤَادَهُ مَخبُولَا

لَو كَانَ جَدُّكُمْ شُـــــرَيكٌ وَالِداً لِلنَّاسِ لَمْ تَلِدِ النِّســــــــاءُ بَخِيلَا

هذهِ الأَبيَاتُ جَاءَتْ فِي مُقَدِّمَةِ قَصِيدَةٍ مَدحَ فِيهَا مَروَانُ مَعناً، وقَدْ أَخَذَتْ المُقَدِّمَةُ الغَزَلِيَّةُ جُزءاً كَبِيراً مِنْ هَذِهِ القَصِيدَةِ، وقَدْ كَانَ مَروَانُ مِن الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ يُحَافِظُونَ فِي شِعرِهِمْ عَلَى بِنَاءِ القَصِيدَةِ العَرَبِيَّةِ، ذَلِكَ البِنَاءُ الشَّامِخُ المَورُوثُ الَّذِي رَفَعَ لِوَاءَهُ الشُّعراءُ الجَاهِلِيُّونَ، وظَلَّ الشُّعراءُ فِي العُصُورِ الأَدَبِيَّةِ القَدِيمَةِ مُحَافِظِينَ عَلَى هَذِهِ الأُصُولِ العَرِيقَةِ، وقَدْ ظَهَرَتْ مُحَافَظَةُ مَروَانَ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ، فَقَدْ بَدَأَ القَصِيدَةَ بالغَزَلِ، ولكِنَّهُ عِندَما أَرَادَ الانتِقَالَ مِن الغَزَلِ إِلَى المَدحِ، لَمْ يُحسِنْ التَّخلُّصَ، فَقَدْ قَالَ (مِمَّنْ تَرَكْنَ فُؤَادَهُ مَخبُولَا)، ثُمَّ انتَقَلَ إِلَى المَدحِ فَقَالَ (لَو كَانَ جَدُّكُمْ شُرَيكٌ)، فَمَا علاقَةُ الفُؤَادِ المَخبُولِ بِجَدِّهِ شُرَيكٍ، وفِي المُقَدِّمَةِ الغَزَلِيَّةِ يَأْتِي مَروَانُ بِتَشبِيهَينِ، وقَدْ جَاءَ التَّشبِيهُ الأَوَّلُ فِي قَولِهِ (والشَّيبُ إِذْ طَرَدَ السَّوَادَ بَيَاضَهُ، كَالصُّبحِ أَحدَثَ لِلظَّلامِ أُفُولَا) ، وهُو فِي هَذَا التَّشبِيهِ يُشَبِّهُ الشَّيبَ الَّذِي طَرَدَ السَّوَادَ بالصُّبحِ الَّذِي طَرَدَ الظَّلامَ، والتَّشبِيهُ يُصَوِّرُ الحَالَةَ النَّفسِيَّةَ السَّيِّئَةَ للشَّاعرِ عِندَمَا رَأَى الشَّيبَ قَدْ أَشعَلَ رَأْسَهُ، فَقَدْ أَحزَنَهُ ظُهُورُ هَذَا الشَّيبِ؛ لأَنَّهُ كَانَ سَبباً فِي إِعرَاضِ النِّسَاءِ عَنهُ وَإِنْ كَانَ مَروَانُ لَمْ يَذكُرْ هَذَا الإِعرَاضَ، ومَروَانُ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَجَادَ فِي اختِيَارِ الصُّورَةِ الشَّكلِيَّةِ الوَاقِعِيَّةِ الَّتِي تُضَاهِي الشَّيبَ، إِلَّا أَنَّ الإِيحَاءَ النَّفسِيَّ فِي الصُّورَتَينِ مُختَلِفٌ ، فَظُهُورُ الشَّيبِ يُوحِي أَحياناً بالحُزنِ والقَلقِ، أَمَّا ظُهُورُ الصُّبحِ بَعدَ ذَهَابِ الظَّلامِ ، فَفِيهِ سَعَادَةٌ وميلادٌ للأَمَلِ مِنْ جَدِيدٍ. إِلَّا إِذَا كَانَ مَروَانُ سَعِيداً بظُهُورِ هَذَا الشَّيبِ. وجَاءَ التَّشبِيهُ الثَّانِي فِي قَولِهِ (مِنْ كُلِّ آنِسَةٍ كَأَنَّ حِجَالَهَا ، ضُمِّنَ أَحْوَرَ فِي الكِنَاسِ كَحِيلَا)، وهُو هُنا يُشَبِّهُ بَيَاضَ المَرأَةِ وهِيَ فِي بَيتِهَا بِبَيَاضِ البَقَرَةِ

الوَحشِيَّةِ فِي كِنَاسِهَا، وهَذَا التَّشبِيهُ يُصَوِّرُ مَا كَانَتْ هَذِهِ الآنِسَةُ عَلَيهِ مِنْ بَيَاضٍ ونَقَاءٍ.

وإِذَا كَانَتْ التَّشبِيهَاتُ مَحدُودةً فِي شِعرِ مَروَانَ، فَقَدْ جَاءَتْ الاستِعَارَاتُ فِي شِعرِهِ بِكَثَافَةٍ؛ لأَنَّ الاستِعَارَاتِ هِيَ الَّتِي تُنَاسِبُ الحِدَّةَ العَاطِفِيَّةَ والثَّورَةَ الوِجدَانِيَّةَ الَّتِي تَكُونُ فِي الشِّعرِ الغِنَائِيِّ، ومِنْ هَذِهِ الاستِعَارَاتِ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ[1](من الوافر):

مَضَـــــى لِسَبِيلِهِ مَنْ كُنتَ تَرجُو　　بِهِ عَثَرَاتُ دَهـــــرِكَ أَنْ تُقَالَـــا
فَلَستَ بِمَالِكٍ عَبَـــــرَاتِ عَيـــنٍ　　أَبَتْ بِدُمُوعِـــــهَا إِلَّا انهِمَالَـــا
وفِي الأَحشَـــــــاءِ مِنكَ غَلِيلُ حُزنٍ　　كَحَرِّ النَّارِ يَشتَـــــعِلُ اشتِعَالَا
كَأَنَّ اللَّيلَ وَاصَـــــلَ بَعدَ مَعـــــنٍ　　لَيَالِيَ قَدْ قُـــــــرِنَّ بِهِ فَطَالَا
لَقَدْ أَورَثَتْـــــنِي وبَنِـــــيَ هَمًّا　　وأَحزَاناً تُطِـــــــيلُ بِهَا اشتِعَالَا
وقَائِلَةٍ رَأَتْ رَجُـــــلاً بَرَاهُ الحُزنُ حَتَّى　　أَضَـــــــــرَّ بِهِ وأَورَثَهُ خَبَالَا
وأَيَّامُ المَنُـــــــــونِ لَهَا صُرُوفٌ　　تَقَلَّبُ بِالفَتَـــــــى حَالاً فَحَالَا

والتَّجرِبَةُ فِي الأَبيَاتِ السَّابِقَةِ حَزِينَةٌ، فَقَدْ رحلَ مَعنٌ، وقَدْ كَانَ مَعنٌ مُقِيلاً لِعَثَرَاتِ مَروَانَ، وقَدْ كَانَتْ هَذِهِ العَثَرَاتُ كَثِيرةً، ولِذَلِكَ فَإِنَّ الحُزنَ عَلَى مَعنٍ كَثِيرٌ، يَدُلُّ عَلَى هَذَا الحُزنِ الكَثِيرِ الجُمُوعُ الكَثِيرَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا مَروَانُ ؛ لِكَي يُصَوِّرَ بِهَا حُزنَهُ الَّذِي مَلَأَ قَلبَهُ وأَغرَقَ عَينَيهِ بِالعَبَرَاتِ ، وفِي هَذَا الجَوِّ النَّفسِيِّ الَّذِي يَفِيضُ بِالحُزنِ تَجِدُ الاستِعَارَاتُ مَكَاناً خِصباً لَهَا ، فَهِيَ تَنمُو فِي هَذَا الجَوِّ الَّذِي يَمُوجُ بِالحَسرَةِ والأَلَمِ، ومِنْ هَذِهِ الاستِعَارَاتِ قَولُهُ (تَرجُو بِهِ عَثَرَاتُ)، (وعَثَرَاتُ دَهرِكَ) ، (عَثَرَاتُ .....أَنْ تُقَالَا)، (بِمَالِكٍ عَبَرَاتِ عَينٍ)، (عَينٍ أَبَتْ)، (بِدُمُوعِهَا إِلَّا اِنهِمَالَا)، (وفِي الأَحشَاءِ مِنكَ غَلِيلٌ) ، (غَلِيلُ حُزنٍ)، (كَأَنَّ اللَّيلَ وَاصَلَ) ، (لَيَالِيَ قَدْ قُرِنَّ بِهِ)،

(1) السَّابق : (٨١) .

(كَأَنَّ اللَّيلَ ....فَطَالَا)، (بَرَاهُ الحُزنُ)، (الحُزنُ حَتَّى أَضَرَّ بِهِ) ، (وأَيَّامُ المَنُونِ لَهَا صُرُوفٌ)، وهَذِهِ الاستِعَارَاتُ مِنْ قَبِيلِ الاستِعَارَاتِ المَكنِيَّةِ، وقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الاستِعَارَاتُ للتَّجسِيدِ، وكذَلِكَ جَاءَتْ للتَّشخِيصِ، وفِي هَذَا تَوضِيحٌ وإِظهَارٌ لِحُزنِهِ الشَّدِيدِ عَلَى مَعنٍ، كَمَا كَانَ فِيهَا تَعظِيمٌ مِنْ شَأْنِ الشَّدَائِدِ الَّتِي أَحدَثَتْ كُلَّ هَذِهِ الصُّرُوفِ، ومِنهَا رَحِيلُ مَعنٍ، الَّذِي كَانَ قَاسِياً عَلَى مَروَانَ.

ثَانِياً ــ الصُّورُ الكُلِّيَّةُ الحَرَكِيَّةُ :

مَروَانُ فِي شِعرِهِ الَّذِي مَدَحَ فِيهِ مَعناً ،كَانَ حَرِيصاً عَلَى الإِكثَارِ مِن الصُّورِ الكُلِّيَّةِ الحَرَكِيَّةِ ، وقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الصُّورُ لِإِظْهَارِ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ فِي صُورةِ الفَارِسِ السَّابِقِ، الَّذِي سبقَ أَقرَانَهُ فِي كُلِّ المَيَادِينِ ، وقَدْ أَظهَرَ مَروَانُ مَعناً سَابِقاً دَائِماً وفِي كُلِّ المَجَالَاتِ، فقَدْ رَأَينَاهُ سَابِقاً فِي مَيدَانِ الفُرُوسِيَّةِ الأَخلاقِيَّةِ والإِنسَانِيَّةِ، ورَأَينَاهُ سَابِقاً فِي مَيدَانِ الفُرُوسِيَّةِ القِتَالِيَّةِ، وقَدْ ذَكَرَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ الكَثِيرَ مِنْ صِفَاتِ وأَخلاقِ مَعنٍ، ومَروَانُ فِي صُورَهِ الحَرَكِيَّةِ استَطَاعَ أَنْ يُقَدِّمَ صُورَةً قَرِيبَةً مِمَّا ذُكِرَ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ، وهَذَا لا يعنِي أَنَّ الخَيَالَ كَانَ مَفقُوداً ، فقَدْ كَانَ الخَيَالُ مَوجُوداً وبِقُوَّةٍ فِي تَصوِيرِ مَعنٍ فِي شِعرِ مَروَانَ. ومِن الصُّورِ الحَرَكِيَّةِ فِي شِعرِ مَروَانَ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ [1](من الطَّويل):

جَرَى سَابِقاً مَعنُ بنُ زَائِدَةَ الَّذِي ... بِهِ يَفخَرُ الحَيَّانِ بَكرٌ وتَغلِبُ

فَبَرَّزَ حَتَّى مَا يُجَارَى وإِنَّمَا ... إِلَى عِرقِهِ يُنمَى الجَوَادُ ويُنسَبُ

مُحَالِفُ صَولَاتٍ تُمِيتُ ونَائِلٌ ... يَرِيشُ فَمَا يَنفَكُّ يُرجَى ويُرهَبُ

(1) شعر مَروَان : (١٧) .

يُقَدِّمُ مَروَانُ صُورَةً لِمَعنٍ، وهُو فِي هَذِهِ الصُّورَةِ يَبدُو سَابقاً ومُتَقَدِّماً، وكَانَ هَذَا السَّبقُ سبباً مِن أَسبَابِ فَخرِ بكرَ وتَغلِبَ بِهِ، والصُّورَةُ الحَركِيَّةُ وَاضِحَةٌ فِي الأَبيَاتِ، ومِنْ أَجزَاءِ هَذِهِ الصُّورَةِ (جَرَى... سَابِقاً)، (فَبَرَّزَ حَتَّى مَا يُجَارَى)، (مُحَالِفُ صَولَاتٍ) ،هَذِهِ الصُّورةُ تُؤكِّدُ عَلَى أَنَّ الحَرَكَةَ والجِدَّ وبَذلَ الجُهدِ السَّبِيلُ الأَمثَلُ لِبُلُوغِ المَجدِ وتَحقِيقِ الآمَالِ.

وتَظهَرُ الصُّورَةُ الكُلِيَّةُ الحَركِيَّةُ كَثِيراً فِي شِعرِ مَروَانَ، ومِنْ هَذَا الشِّعرِ قَولُهُ[1] (من البسيط):

إِنَّ الفَوَارِسَ مِنْ شَيبَانَ قَدْ عُرِفُوا		بالصِّدقِ إِنْ نَزَلُوا والمَوتِ إِنْ رَكِبُوا
قَدْ جَرَّبَ النَّاسُ قَبلَ اليَومِ أَنَّهُمُ		أَهلُ الحُلُومِ وأَهلُ الشَّغبِ إِنْ شَغَبُوا
قُلْ لِلْجَوَادِ الَّذِي يَسعَى لِيُدرِكَهُ		أَقصِرْ فَمَالَكَ إِلَّا الفَوتُ والطَّلَبُ

كَمَا نَظهَرُ فِي قَولِهِ [2](مِن الكَامِلِ) :

مَسَحَتْ رَبِيعَةُ وَجْهَ مَعنٍ سَابِقاً		لَمَّا جَرَى وجَرَى ذَوُو الأَحسَابِ
خَلَّى الطَّرِيقَ لَهُ الجِيَادُ قَوَاصِراً		مِنْ دُونِ غَايَتِهِ وهُنَّ كَوَابِي

وتَظهَرُ أَيضاً فِي قَولِهِ [3](مِن البسيط):

قُلْ لِلْعُفَاةِ أَرِيحُوا العِيسَ مِنْ طَلَبٍ		مَا بَعدَ مَعنٍ حَلِيفِ الجُودِ مِنْ جُودِ
قُلْ لِلْمَنِيَّةِ لَا تُبقِي عَلَى أَحَدٍ		إِذْ مَاتَ مَعنٌ فَمَا مَيتٌ بِمَفقُودِ

ونَرَاهَا حَيَّةً فِي قَولِهِ [4](مِنْ البسيط) :

---

(1) السَّابق : (٢٠) .
(2) شعر مَروَان : (٢٤) .
(3) السَّابق : (٤٠) .
(4) السَّابق : (٤٤) .

مَا مِنْ عَدُوٍّ يَرَى مَعناً بِسَاحَتِهِ إِلَّا يَظُنُّ المَنَايَا تَسْبِقُ القَدَرا
يُلفَى إِذَا الخَيلُ لَمْ تُقدِمْ فَوَارِسُهَا كَاللَّيثِ يَزدَادُ إِقدَاماً إِذَا زُجِرا
أَغَرُّ يُحسَبُ يومَ الرَّوعِ ذَا لِبَدٍ وَرداً وَيَحسَبُ فَوقَ المِنبَرِ القَمَرا

ثَالِثاً ــ المُوسِيقَى الشِّعرِيَّة :

أولاً ــ المُوسِيقَى الخَارِجِيَّة :

للشِّعرِ العَرَبِيِّ شَكْلٌ نَغَمِيٌّ رَائِعٌ وبَدِيعٌ، وقَدْ كَانَ للعَرَبِ دَورٌ كَبِيرٌ فِي إِكْمَالِ هَذَا الشَّكْلِ النَّغَمِيِّ، وقَدْ جَاءَ الخَلِيلُ بنُ أَحمدَ (ت: ١٧٦ هـ) فِي عَصرِ العَبَّاسِيِّينَ؛ لِيَقُومَ بِحَصرِ هَذِهِ الأَشكَالِ النَّغمِيَّةِ، وهَذَا مَا دَعَاهُ إِلَى تَأْلِيفِ عِلمِ العَرُوضِ وقَدْ حَصَرَ فِيهِ الأَوزَانَ الشِّعرِيَّةَ أَو البُحُورَ الَّتِي كَانَتْ إِطَاراً للشِّعرِ العَرَبِيِّ فِي كُلِّ العُصُورِ، حَتَّى بَعدَ المُحَاوَلَاتِ الكَثِيرَةِ الَّتِي انطَلَقَتْ مَجَدِّدَةً فِيهِ ، فَقَدْ بَدَأَتْ هَذِهِ المُحَاوَلَاتُ مِنهُ وعَادَتْ إِلَيهِ، ولَمْ تَستَطِعْ أَنْ تَكُونَ بَدِيلاً عَنهُ، ثُمَّ قَامَ الخَلِيلُ بَعدَ ذَلِكَ بِوَضعِ عِلْمِ القَافِيَّةِ ، وقَدْ سَمَّى عُلَمَاءُ هَذَا الفَنِّ المَنظُومَةَ الَّتِي تَجِيءُ عَلَى وَزنٍ مِنْ هَذِهِ الأَوزَانِ معَ الالتِزَامِ بالقَافِيةِ باسمِ القَصِيدَةِ، وهِي "تَتَأَلَّفُ مِنْ وِحدَاتٍ تُسَمَّى أَبيَاتاً، وتَشْتَرِكُ جَمِيعُ الأَبيَاتِ فِي وَزنٍ وَاحِدٍ وقَافِيَةٍ وَاحِدَةٍ ...."[1].

وقَدْ حَاوَلَ النُّقَّادُ الرَّبطَ بَينَ الوَزْنِ الشِّعرِيِّ وبَينَ المَوضُوعِ ، وقَدْ كَانَتْ هَذِهِ المُحَاوَلَاتُ فِي القَدِيمِ والحَدِيثِ، ولَكِنْ لَيسَ هُنَاكَ قَطعٌ فِي هَذَا المَوضُوعِ؛ لِأَنَّ المُنَاسَبَةَ بَينَ المَوضُوعِ والبَحرِ أَمرٌ يُمكِنُ وجُودُه وتَحقُّقُهُ فِي أَيِّ بَحرٍ، فالطَّوِيلُ يَصلُحُ لِكُلِّ التَّجَارِبِ الشُّعُورِيَّةِ ، فَلَمْ يَكُنْ الطَّوِيلُ يَوماً خَاصاً بِمَوضُوعٍ أَو تَجرِبَةٍ ، ومَا يُقَالُ فِي بَحرِ الطَّوِيلِ يُقَالُ فِي أَيِّ بَحرٍ مِن البُحُورِ الشِّعرِيَّةِ ، ولِكَي نَكُونَ

(١) فِي النَّقدِ الأَدبِيِّ : د / شَوقِي ضَيف ، (ط : ٤) ، دار المعارف ، (١٠٠) .

مُنصفِينَ لَابُدَّ مِنْ القَولِ إنَّ طَبِيعَةَ الانفِعَالَاتِ ودَرَجَتَهَا تُؤَثِّرُ بِقَدرٍ كَبِيرٍ فِي اختِيَارِ البَحرِ الشِّعرِيِّ، فالانفِعَالَاتُ القَويَّةُ والحَادَّةُ تَمِيلُ فِي صَوغِهَا إِلَى البُحُورِ القَصِيرَةِ أَو المَجزُوءَةِ، والانفِعَالَاتُ الهَادِئَةُ أَو الَّتِي تُصَاغُ بَعدَ فَترَةٍ مِنْ حُدُوثِهَا تَمِيلُ فِي شَكلِهَا النَّغَمِيِّ إِلَى البُحُورِ الطَّوِيلَةِ[1].

والحَديثُ عَن المُوسِيقَى الخَارِجِيَّةِ فِي شِعرِ مَروَانَ فِي مَعنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ سَينطَلِقُ مِنْ خِلَالِ هَذَينِ المَحوَرَينِ :

المِحورُ الأَوَّلُ ــ دِرَاسَةُ البُحُورِ الشِّعرِيَّةِ :

كَانَ مَروَانُ فِي شِعرِهِ فِي مَعنٍ مُحَافِظاً عَلَى الأَوزَانِ الشِّعرِيَّةِ المَورُوثَةِ؛ فقَدْ أَدرَكَ عَصرَ الأُمويِّينَ ، وعَاشَ عُمُراً فِي عَصرِ العَبَّاسِيِّينَ ، وكَانَ الصَّوتُ العربيُّ المُحَافِظُ عَالِياً فِي هَذَا الوَقتِ ، وكَانَ يَصِيحُ بَدَعَوَاتِ المُحَافَظَةِ اللُّغَوِيُّونَ، وقَدْ وَجَدَتْ هَذِهِ الصَّيحَاتُ آذَاناً صَاغِيَةً فِي شِعرِ مَروَانَ ، فقَدْ جَاءَ شِعرُهُ فِي مَروَانَ فِي إِطَارِ الأَوزَانِ الخَلِيلِيَّةِ ، ولكنْ هَلْ كَانَ مَروَانُ بنُ أَبِي حَفصَةَ يُفَضِّلُ بُحُوراً ذَاتَ طَابَعٍ خَاصٍ فِي التَّعبِيرِ عَنْ تَجرِبَتِهِ الإِبدَاعِيَّةِ؟ وعِندَما نَنظُرُ فِي شِعرِ مَروَانَ، نَجِدُهُ لا يَتَّخِذُ بُحُوراً مُحَدَّدَةً للتَّعبِيرِ عَنْ مِشَاعِرِهِ وأَفكَارِهِ ، ولَكِنَّهُ يُصَوِّرُ مشَاعِرَهَ وأَفكَارَهُ فِي إِطَارِ أَيِّ بَحرٍ مِن البُحُور، وقَدْ قُمْتُ بَحَصرِ البُحُورِ الَّتِي جَاءَتْ فِي شِعرِ مَروَان فِي مَعنٍ، وقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ البُحُورُ علَى هَذَا الشَّكلِ: الطَّوِيل جَاء وَزناً فِي ثَلاثِ قَصَائِد ومَقطُوعَةٍ ، والبسيط جَاءَ وزناً فِي قَصِيدَةٍ ومَقطُوعَتَين، والكَامِل جَاء وزناً فِي قَصِيدَتَينِ ومَقطُوعَة، والخَفِيف جَاءَ وزناً فِي قَصِيدَةٍ وَاحِدَةٍ وقَدْ جَاءَتْ الأَوزَان السَّابقَة فِي غَرضِ المَدحِ ، وفِي غَرضِ الرِّثَاء كَانَ لِمَروَانَ مَقطُوعةٌ وقَدْ

(1) فِي مُوسِيقَى الشِّعرِ العَربيِّ : د / نَاجِي فُؤَاد بَدَوِي ، (ط : ١) ، (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م) ، (٦٤) .

جَاءَتْ فِي بحرِ البسيطِ ،وقَصيدَةٌ وقَدْ جَاءَتْ فِي بَحرِ الوَافرِ، ونُلَاحِظُ فِيمَا سَبقَ تَعَدُّدَ الأَوزَانِ فِي المَوضُوعِ الوَاحدِ.

ومعَ تَغَيُّرِ الوَزنِ فِي المَوضُوعِ الوَاحدِ ، فَإِنَّ مَروَانَ كَانَ مِنْ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ استَطَاعُوا أَنْ يُلَائِمُوا بينَ تَجَارِبِهِمْ الشُّعُورِيَّةِ وبَينِ الوَزنِ الشِّعريِّ ، وهَذَا يَظهَرُ فِي شِعرِهِ بِصِفَةٍ عامةٍ وفِي شِعرِهِ فِي مَعنِ بنِ زَائِدَةَ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ ، ونَستَطِيعُ أَنْ نَقِفَ عَلَى هَذِهِ المُوَاءَمَةِ فِي أَيِّ قَصِيدَةٍ وفِي أَيِّ مَقطُوعَةٍ ، ومِنْ شِعرِهِ الَّذِي تَتَحَقَّقُ فِيهِ هَذِهِ المُنَاسَبَةُ[1] (مِن الطَّوِيل):

أَرَى القَلْبَ أَمْسَى بِالْأَوَانِسِ مُولَعــاً ... وَإِنْ كَانَ مِنْ عَهْدِ الصِّبَــا قَدْ تَمَتَّعَا

ولَّمَا سَــــرَى الهَمُّ الغَرِيبُ قَرَيتُهُ ... قِرَى مَنْ أَزَالَ الشَّــكَّ عَنهُ وَأَزمَعَا

عَزَمْتُ فَعَجَّلْتُ الرَّحِيــلَ ولَمْ أَكُنْ ... كَذِي لَوثَةٍ لَا يُطْلِـــعُ الهَمَّ مَطْلَعَا

فَأَمَّتْ رِكَابِي أَرضَ مَعــنٍ ولَمْ تَزَلْ ... إِلَى أَرضِ مَعــــنٍ حَيثُمَا كَانَ نُزَّعَا

نَجَائِـــــبُ لَولَا أَنَّهَا سُخِّرَتْ لَنَا ... أَبَتْ عِزَّةً مِنْ جَهلِـــهَا أَنْ تُوزَّعَا

كَسَونَا رِحَالَ المَيسِ مِنهَا غَــوَارِباً ... تَدَارَكَ فِيهَا النَّـــيُّ صَيفاً ومَربَعــاً

فَمَا بَلَغَتْ صَنعَاءَ حَتَّى تَوَاضَعَتْ ... ذُرَاهَا وزَالَ الجَهــــلُ عَنهَا وأَقلَعَا

ومَا الغَيثُ إِذْ عَمَّ البِلَادَ بِصَــوبِهِ ... عَلَى النَّاسِ مِنْ مَعرُوفِ مَعنٍ بِأَوسَعَا

القَصِيدَةُ فِي مَدحِ مَعنٍ، وقَدْ بَدَأَتْ بالغَزَلِ الَّذِي جَاءَ فِي بَيتٍ وَاحدٍ، وقَدْ اِنتَقَلَ مِنهُ مَروَانُ إِلَى المَدحِ، والَّذِي استَمَرَّ إِلَى آخِرِ القَصِيدَةِ، وقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ القَصِيدَةُ فِي وَزنِ بَحرِ الطَّوِيلِ، وبحرُ الطَّوِيلِ مِنْ البُحُورِ الَّتِي جَاءَتْ كَثِيراً فِي الشِّعرِ العربيِّ، بَلْ إِنَّهُ مِنْ أَكثَرِ البُحُورِ دَوَرَاناً فِيهِ، ولَمْ يَكُنْ هَذَا البحرُ يُلَازِمُ مَوضُوعاً وَاحداً ، بلْ نَظَمَ فِيهِ الشُّعَرَاءُ فِي كُلِّ المَوضُوعَاتِ، وكَذَلِكَ كَانَ الحَالُ عِندَ

(1) شعر مَروَان : (٦٣).

مَروَان ، فقَدْ جَاءَ هَذَا البحرُ وزناً لَقَصَائِدَ قِيلَتْ فِي شِعرِ المَدحِ وشِعرِ الرِّثَاءِ ،وقَدْ استَطَاعَ مَروَانُ أَنْ يَجعَلَ هَذَا البَحرَ مُتَوَافِقاً معَ تَجربَتِهِ الشُّعُورِيَّة، وقَدْ مَكَّنَهُ مِنْ إِحدَاثِ هَذَا التَّوَافُق والتَّنَاغُمِ إِدرَاكُهُ لِقِيمَةِ السَّوَاكِنِ الَّتِي تَأْتِي فِي حَشْوِ هَذَا البَحرِ، فَهُو أَحيَاناً يَأْتِي بِهَا مِن الحُرُوفِ الصَّحِيحَةِ ، وأَحيَاناً يَأْتِي بِهَا مِنْ حُرُوفِ المَدِّ واللِّينِ، وهَذَا يُؤَكِّدُ عَلَى إِدرَاكِهِ لِصِفَاتِ هَذِهِ الحُرُوفِ ، فَهُو عِندَما يُرِيدُ التَّعظِيمَ مِنْ شَأْنِ حُبِّهِ فِي أَيَّامِ الصِّبَا يَأْتِي بِحُرُوفِ اللِّينِ، ومِنْ ذَلِكَ فِي قَولِهِ (أَرَى القَلْبَ بِالأَوَانِسِ مُولَعَا)، فَحُرُوفُ اللِّينِ تَدلُّ فِيما سَبقَ عَلَى التَّعظِيمِ ، وكَذَلِكَ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى التَّكثِيرِ، وبِخَاصَّةٍ فِي كَلِمَةِ (الأَوَانِسِ)، وتَدلُّ أَيضاً عَلَى القُوَّةِ ويَظهَرُ ذَلِكَ فِي كَلِمَةِ (مُولَعَا)، ونَجدُ بَرَاعَةً فَائِقَةً فِي تَوظِيفِ السَّوَاكِنِ فِي الشَّطرِ الثَّانِي مِن البيتِ الأَوَّلِ، ويَظهَرُ ذَلِكَ فِي قَولِهِ (وَإِنْ كَانَ مِنْ عَهْدِ الصِّبَا)، فقَدْ جَاءَ السَّاكِنُ فِي (وإِنْ) نُوناً ، ولَمْ يَأْتِ حَرفَ مَدٍّ ؛ لأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ إِنَّ أَيَّامَ الصِّبَا قَدْ مَرَّتْ مُسرِعَةً ، وهَذَا نَشْعُرُ بِهِ أَيضاً فِي كَلِمَةِ (عَهدِ ، الصِّبَا، تَمَتَّعا)، وهُو عِندَمَا أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ بُعدَ العَهدِ بَينَه وبَينَ حُبِّ أَيَّامِ الصِّبَا، جَاءَ بِحرفِ المَدِّ الأَلِفِ ، وذَلِكَ فِي قَولِهِ (كَانَ) ، فَكَانَ تَدُلُّ عَلَى البُعدِ مِن صِيغَةِ المَاضِي، ومِنْ خِلالِ الامتِدَادِ فِي حَرفِ الأَلِفِ ، ومعَانِي التَّعظِيمِ والتَّكثِيرِ الَّتِي تُوحِي بِهَا حُرُوفُ المَدِّ واللِّينِ تُوجَدُ بِكَثْرَةٍ فِي الأَبيَاتِ السَّابِقَةِ، ويُمكِنُ الوُقُوفُ عَلَيهَا فِي هَذِهِ الكَلِمَاتِ (ولَمَّا، سَرَى، الغَرِيبُ، قَرِيتُهُ، قِرى، الرَّحِيل، كَذِي، لَوثَة، رِكَابِي، نَجَائِب، صنعَاء، تَوَاضَعَتْ، ذُرَاهَا، ومَا الغَيثُ، البِلاد، بِصَوبِهِ، عَلَى النَّاسِ، مِنْ مَعرُوفِ، بِأَوسَعَا)، وإِذَا كَانَ وُجُودُ حُرُوفِ المَدِّ واللِّينِ، قَدْ أَفَادَ هَذِهِ المَعَانِي، فَإِنَّ عَدَمَ وُجُودِهَا فِي أَمَاكِنِهَا فِي كَلِمَاتٍ أُخرى مِنْ نَفسِ الأَبيَاتِ والاكتِفَاء بِالحُرُوفِ الصَّحِيحَةِ السَّاكِنَةِ ، قَدْ جَعَلَ هَذِهِ الحُرُوفَ تَدلُّ أَو تُوحِي بِالقُوَّةِ والسُّرعَةِ والشِّدَّةِ، وتَظهَرُ هَذِهِ المَعَانِي فِي قَولِهِ (الهَمُّ، الشَّكَّ، عَزَمْتُ، فَعَجَّلْتُ، فَأَمَّتْ، سُخِّرَتْ، أَبَتْ عِزَّةً، وأَقلَعَا). وهَكَذَا استَطَاعَ مَروَانُ أَنْ يَجعَلَ بَحرَ الطَّوِيلِ مُتَنَاغِماً

معَ تَجرِبَتِهِ الشُّعُورِيَّةِ، وقَدْ ظَهرَ هَذَا الانسجَامُ فِي كُلِّ الأَوزَانِ الشِّعرِيَّةِ الَّتِي اختَارَهَا لِتَكُونَ وِعاءً لِتَجَارِبِهِ الشُّعُورِيَّةِ.

المحور الثَّانِي ــ دِرَاسَةُ القَافِيَة :

والقَافِيَةِ فِي البَيتِ "تُثِيرُ نَغَماً عَجِيباً لِمَا فِيهِ مِنْ تَوقُّعٍ لِمَقَاطِعَ خَاصَّةٍ تَنْسَجِمُ مَعَ مَا نَسمَعُ مِنْ مَقَاطِعَ؛ لِتَتَكَوَّنَ مِنهَا جَمِيعاً تِلكَ السِّلسِلَةُ المُتَّصِلَةُ الحَلَقَاتِ الَّتِي لا تَنْبُو إِحدَى حَلَقَاتِهَا عَنْ مَقَايِيسِ الأُخرَى، والَّتِي تَنتَهِي بَعدَ عَدَدٍ مُعَيَّنٍ مِن المَقَاطِعِ..[1]".

وقَدْ كَانَ مَروَانُ مُدْرِكاً لِقِيمَةِ القَافِيَةِ فِي الإِيحَاءِ بالتَّجرِبَةِ الشُّعُورِيَّةِ، وقَدْ تَجلَّى هَذَا الإِدرَاكُ فِي شِعرِهِ كُلِّهِ، ومِنْ شِعرِ[2] مَروَانَ الَّذِي قَامَتْ فِيهِ القَافِيَةُ بِدَورِهَا الإِيقَاعِيِّ (من الخفيف):

وَدَّ كُلُّ امرئٍ مِـنَ النَّـاسِ لَو كَا ... نَ أَبُوهُ لَدَى الفَخَـــــارِ أَبَاكَا

قَدْ وَفَى البَأْسُ والنَّدَى لَكَ بِالْعَقْـ ... ـدِ كَمَا قَدْ وَفَيــــتَ إِذْ حَالَفَاكَا

وَأَجَابَاكَ إِذْ دَعَـــــــوْتَ بِلَبِّي ... كَ كَمَا قَدْ أَجَبْــتَ إِذْ دَعَوَاكَا

فَهُمَا دُونَ مَنْ لَهُ تُخْلِـــصُ الوُدْ ... دَ وتَرعَى إِخَـــــــاءَهُ أَخَوَاكَا

لَسْتَ مَا عِشْــــتَ والوَفَاءُ سَنَاءُ ... لَهُمَا مُخفِـــــــراً ولَنْ يُخفِرَاكَا

رُفِعَـــــــتْ فِي ذُرَا المَعَالِي قَدِيماً ... فَوقَ أَيـــــــدِي المُلُوكِ يَدَاكَا

وسَمَا الفَرعُ مِنكَ فِي خَـيرِ أَصلٍ ... مِنْ نِزَارٍ فَطَابَ مِنـــــــهُ ثَرَاكَا

فَبِمَعْنٍ تَسمُو وزَائِدَةِ الخَيـ ... ـرِ وعَـــبدِ الإِلَهِ كُلُّ نَمَـــاكَـا

---

(1) مُوسِيقَى الشِّعر : د/ إبراهيم أنيس ، (ط : ٢) ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، (١٩٥٢) ، (١١) .
(2) شعر مَروان : (٧٥) .

ويَظهَرُ دَورُ القَافِيَةِ فِي القَصِيدَةِ ، فقَدْ قَامَتْ بِدَورِهَا النَّغَمِيِّ مَعَ الوَزنِ الشِّعرِيِّ ، وكَذَلِكَ كَانَتْ مُنسَجِمَةً معَ المُوسِيقَى الدَّاخِلِيَّةِ ، وكَانَ فِي هَذَا الانسِجَامِ إِنجَاحٌ للتَّجرِبَةِ الشُّعورِيَّةِ الَّتِي تَعَاوَنَتْ عَنَاصِرُهَا الأَربَعَةُ فِي الوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الغَايَةِ، ولَيسَ القَصدُ مِن القَافِيَةِ حَرفَ الرَّوِيِّ الَّذِي بُنِيَتْ عَلَيهِ القَصِيدَةِ، وهُو هُنَا الكَاف، وإِنَّمَا يُقصَدُ بالقَافِيَةِ القَافِيَةُ بِحُرُوفِهَا، والقَافِيَةُ فِي الأَبيَاتِ السَّابِقَةِ، هِيَ (بَاكَا، فَاكَا، وَاكَا، وَاكَا، رَاكَا، دَاكَا، رَاكَا، مَاكَا).

ثَانِيا ــ المُوسِيقَى الدَّاخِلِيَّة:

يُقصَدُ بالمُوسِيقَى الخَارِجِيَّةِ مُوسِيقَى الحَرفِ، وهِي : مَا يَعرِضُ للحَرفِ مِنْ صِفَاتِ الجَهرِ، والهَمْسِ، والشِّدَّة، واللِّين، وهَذِهِ المُوسِيقَى تُحدِثُ نَغَماً صَوتِياً لَهُ علاقَةٌ بالتَّيَارِ الشُّعُورِيِّ والنَّفسِيِّ فِي مَسَارِ النَّصِّ الأَدَبِيِّ . وموسِيقَى الكَلِمَة، وهِيَ: الإِيقَاعُ المُؤثِّرُ الَّذِي يَنجُمُ عَنْ مَوقِعِهَا مَن النَّصِّ، وذَلِكَ مَا يُسَمُّونَهُ بالجَرسِ اللَّفظِيِّ. ومُوسِيقَى النَّظمِ والأُسلُوب: وهِي ذَلِكَ النَّسَق الحَالِي فِي تَأْلِيفِ العِبَارَةِ[1].

وكَمَا كَانَ للمُوسِيقَى الخَارِجِيَّةِ دَورُهَا فِي إِحدَاثِ التَّجَاوُبِ النَّفسِيِّ والشُّعُورِيِّ بَينَ النَّصِّ وبَينَ المُتَلَقِّي في شِعرِ مَروَان فِي مَعنٍ، كَذَلِكَ كَانَ للمُوسِيقَى الدَّاخِلِيَّةِ نَفسُ الدَّورِ فِي إِحدَاثِ هَذَا التَّجَاوُبِ النَّفسِيِّ والشُّعُورِيِّ. ويُمكِنُ الوُقُوفُ عَلَى هَذَا التَّأْثِيرِ الصَّوتِي للمُوسِيقَى الدَّاخِلِيَّةِ فِي شِعرِ مَروَان مِنْ خِلَالِ قَولِهِ (من الوَافِر) :

فَلَهفَ أَبِي عَلَيـــــكَ إِذَا العَطَايَا		جُعِـــــلْنَ مُنىً كَوَاذِبَ واعتِلَالَا
ولَهفَ أَبِي عَلَيكَ إِذَا الأَسَـــارَى		شَكَـــــوا حَلَقاً بِأَســوُقِهِمْ ثِقَالَا

(1) الثَّقَافَة العَرَبِيَّة أَسبقُ مِنْ ثَقَافَةِ اليُونَان والعِبرِيِّين : العقَّاد ، مكتبة النَّهضَةِ المصرِيَّةِ ، (١٠٥) .

ولَهْفَ أَبِي عَلَيـــــكَ إِذَا اليَتَامَى غَـــــدَوا شُعْثاً كَأَنَّ بِهِمْ سُـلَالَا
ولَهفُ أَبِي عَلَـــــيكَ إِذَا المَوَاشِي قَـــــرَتْ جَدْباً تُمَاتُ بِهِ هُزَالَا
ولَهفُ أَبِي عَلَيـــــكَ لِكُلِّ هَيجَا لَهَا تُلقِي حَوَامِـــلُهَا السِّخَـــالَا
ولَهْفُ أَبِي عَلَيـــــكَ إِذَا القَوَافِي لِمُمْتَدَحٍ بِهَا ذَهَـــــبَتْ ضَلَالَا

الجوُّ النَّفسيُّ والشُّعُوريُّ فِي الأَبيَاتِ يُثِيرُ الحُزنَ عَلَى رَحيلِ مَعنٍ ، وقَدْ قَامَتْ كُلُّ العَنَاصِرِ بِدَورِهَا فِي الإِيحَاءِ بِهَذَا الحُزنِ ، فاللُّغَةُ الشِّعريَّةُ قَامَتْ بِدَورِهَا فِي هَذَا الإِيحَاءِ ، وكَذَلِكَ كَانَ للتَّصوِيرِ دَورُهُ، وأَسهَمَتْ مُوسِيقَى البَحرِ والقَافِيَةِ فِي إِحدَاثِ النَّغمَةِ الَّتِي تُشبِهُ نَغمَةَ الحُزنِ، وقَدْ أَكَّدَتْ المُوسِيقَى الدَّاخِلِيَّةِ عَلَى هَذَا الإِحسَاسِ الحَزِينِ الَّذِي عَاشَهُ مَروَانُ بَعدَ رَحِيلِ مَعنٍ، وتَظهرُ هَذِهِ المُوسِيقَى فِي تَكرارِ حُرُوفِ الحَلقِ والَّتِي جَاءَتْ بِكَثرَةٍ فِي الأَبيَاتِ؛ لِإِظهَارِ حُزنِ مَروَانَ عَلَى مَعنٍ وإِعلانَهِ للجمِيعِ، وهَذَا يَدُلُّ علَى صِدقِ مَروَانَ فِي مشَاعِرِهِ تَجَاه مَعنٍ ، كَمَا تَظهرُ هَذِهِ المُوسِيقَى فِي تَكرَارِ كَلِمَاتِ (لَهفُ أَبِي عَلَيك)، والَّتِي كَرَّرَها الشَّاعرُ فِي الأبيَات ثَمَانِيَ مَرَّاتٍ .

الخَاتِمَة

الحمدُ للَّهِ الَّذِي أَنزلَ عَلَى عَبدِهِ الكِتَابَ، وجَعلَ فِيهِ العَجَبَ العُجَابَ ؛ تَذْكِرَةً لِأُلِي الأَلبَابِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى مَنْ أَرسَلَهُ ربُّهُ بالنُّورِ المُبِينِ ؛ فَأَخرَجَ اللَّهُ بِهِ النَّاسَ مِن الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ،وهَدَى بِهِ إِلَى صِرَاطِهِ المُستَقِيمِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى آلِهِ وأَصحَابِهِ خَيرِ الأَصحَابِ والأَحبَابِ، والَّذِينَ وَعَدَهُمْ رَبُّهُمْ بِالحُسنَى وزِيَادَةٍ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى أُمَّةِ خَيرِ الرُّسُلِ، تِلكَ الأُمَّةُ الوَسَطُ والشَّاهِدَةُ .....وبعد :

فَقَدْ شَاءَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ أَنْ أَصِلَ بالبَحثِ إِلَى هَذَا المَكَانِ ، ولَولَا هِدَايَةُ اللَّهِ الحَافِظَةُ والمُرشِدَةُ مَا كَانَ لِهَذَا البَحثِ أَنْ يَكُونَ فِي هَذَا المَقَامِ ؛ لِيَقُولَ أَهمَّ مَا تَوَصَّلَ إِلَيهِ مِنْ نَتَائِجَ، وقَدْ تَمَثَّلَتْ هَذِهِ النَّتَائِجُ فِي :

١ ــ لَقَدْ أَكَدَّ البحثُ عَلَى العَبَّاسِيَّةِ الشِّعرِيَّةِ الخَالِصةِ لِمَروَانَ بنِ أَبِي حَفصَةَ (ت: ١٨٢ هـ) .

٢ ــ لَقَدْ كَانَ مَروَانُ بنُ أَبِي حفصَةَ مُحِبًّا للعَبَّاسِيِّينَ ، معَ أَنَّهُ كَانَ دَائِمَ النَّظرِ إِلَى عَطَائِهِمْ ونَوَالِهِمْ .

٣ــ لَقَدْ ذَكَرَ البَحثُ الكَثِيرَ مِن الأَدِلَّةِ والبَرَاهِينِ الَّتِي تُؤَكِّدُ عَلَى الحُبِّ المَروَانِيِّ العَبَّاسِيِّ، وقَدْ تَجَلَّتْ هَذِهِ البَرَاهِينُ فِي أَنَّ مَروَانَ جَادَ بِنَفسِهِ فِي سَبِيلِ هَذَا الحُبِّ ، وهَلْ هُنَاكَ أَعظَمُ مِنْ نَفسِهِ لِيَجُودَ بِهَا .

٤ ــ لَقَدْ أَكَدَّ أُستَاذُنَا الدُّكتُورُ الشَّكعَةُ عَلَى التَّقدِيرِ العَبَّاسِيِّ لِمعْنِ بنِ زَائِدَةَ الشَّيبَانِيِّ ، فَقَدْ قَالَ فِي كِتَابِهِ رِحلَةِ الشِّعرِ: لَقَدْ نَالَ مَعنٌ تَقدِيرَ العَبَّاسِيِّينَ ، كَمَا نَالَ تَقدِيرَ الأُمَوِيِّينَ، وإِذَا كَانَ مَعنٌ قَدْ استَطَاعَ أَنْ يَحظَى بتقدِيرِ العَبَّاسِيِّينَ لِصِدقِهِ فِي الدِّفَاعِ عَنهُمْ فِي يَومِ الهَاشِمِيَّةِ[1]، أَفَلا يَصِلُ مَروَانُ إِلَى هَذِهِ المَكَانَةِ بِشِعرِهِ الصَّادِقِ فِيهِمْ

(1) رحلة الشِّعر من الأمَوِيَّةِ إلى العبَّاسِيَّةِ : (٥١٧) .

والَّذِي كَانَ تُرجُمَاناً عَمَّا كَانَ فِي نَفسِهِ مِنْ مشَاعرَ مُخلِصَةٍ؟، ولَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ المَشَاعِرُ الصَّادِقَةُ فِي شِعرِهِ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُ يَفُوزُ بِعَطَاءِ العَبَّاسِيِّينَ .

٥ ــ لَقَدْ أَكَّدَ البحثُ عَلَى صِدقِ مَروَانَ فِي مَرَاثِيهِ الَّتِي رَثَى بِهَا العَبَّاسِيِّينَ ، ولَقَدْ أَكَّدَ أُستَاذُنَا الدُّكتُورُ الشَّكعَةُ عَلَى صِدقِ مَروَانَ فِي مَدَائِحِهِ لِمَعنٍ ، فَقَدْ قَالَ " عَلَى أَنَّ مَروَانَ مَا لَبِثَ أَنْ أَخلَصَ القَولَ لِمَعنٍ ، فَأَنشَدَ فِيهِ عَدداً مِنْ عُيُونِ قَصَائِدِ المَدِيحِ فِي الشِّعرِ العَربِيِّ كُلِّهِ أَدخَلَتْ قَصَائِدُهُ فِيهِ الغَيرَةَ فِي قُلُوبِ المُلُوكِ "[1] ، فإِذَا كَانَتْ قَصَائِدُ مَروَانَ فِي مَدحِ مَعنٍ قَدْ أَدخَلَتْ الغَيرَةَ فِي قُلُوبِ المُلُوكِ ، لِمَا كَانَ فِيهَا مِنْ إِعجَابٍ حقِيقِيٍّ وصدقٍ ، فكيفَ بِقَصَائِدِ الرِّثَاءِ؟

٦ ــ كَانَ مِنْ أَقْوَى دَلَائِلِ الصِّدقِ فِي مَرَاثِي مَروَانَ فِي مَعنٍ ، أَنَّ هَذِهِ القَصَائِدَ قَدْ أَبكَتْ البَرَامِكَةَ[2]، كَمَا أَنَّهَا أَبكَتْ الخَلِيفَةَ الرَّشِيدَ (ت : ١٩٣ هـ) . فَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الفَرَجِ الأَصفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ الأَغَانِيِّ ،وقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَيضاً ابنُ خلِّكَان فِي كِتَابِهِ وفيَاتِ الأَعيَان (أَنَّ دَخَلَ عَلَى الرَّشِيدِ ، فَقَالَ أَنشِدني مَرثِيَتَكَ فِي مَعنٍ ، فَلَّمَا أَنشَدَهُ بَعضَ هَذِهِ القَصِيدَةِ بَكَى الرَّشِيدَ[3]) .

٧ــ لَقَدْ أَكَّدَ البحثُ عَلَى الفُحُولَةِ الشِّعرِيَّةِ لِمَروَانَ ، وقَدْ تَجَلَّتْ هَذِهِ الفُحُولَةُ فِي دِقَّةِ أَلفَاظِهِ والَّتِي كَانَتْ مُتَجَانِسَةً مع مَعَانِيهِ وأَفكَارِهِ ، وكَانَتْ أَيضاً مُتَنَاغِمَةً مع شُعُورِهِ وأَحَاسِيسِهِ، وهَذَا مَا جَعَلَ أَلفَاظَهُ مع جَزَالَتِهَا تَرِقُّ كَثِيراً فِي أَوقَاتِ الضَّعفِ الإِنسَانِيِّ، والَّذِي قَدْ عَاشَهُ مَروَانُ بنُ أَبِي حفصَةَ فِي لَحظَاتِ حُزنِهِ عَلَى مَعنٍ، وقَدْ تَجَلَّى ذَلِكَ فِي مَرَاثِيهِ .

٨ ــ لَقَدْ ظَهَرَ مِنْ خِلَالِ البحثِ حِرصُ مَروَانَ عَلَى الكَثِيرِ مِنْ تَقَالِيدِ الشِّعرِ العَربِيِّ المَورُوثَةِ ، وتَظهرُ هَذِهِ المُحَافَظَةُ فِي مَعَانِيهِ وصُورِهِ الشِّعرِيَّةِ وإِيقَاعِهِ المُوسِيقِيِّ .

---

(١) رحلة الشِّعر من الأُمَوِيَّةِ إلى العبَّاسيَّةِ : (٥١٨) .
(٢) وفيَات الأعيَان : (٢ / ٢٥١ ، ٢٥٢) .
(٣) وفيَات الأعيَان : (٢ / ٢٥٢) .

تَوصِيَات:

وقَدْ ظَهَرَ مِنْ خلالِ البحثِ أَنَّ هُنَاكَ مَوضُوعَاتٍ أُخرَى عَلَى صِلَةٍ بالبحثِ مَا زَالَتْ فِي حَاجَةٍ إِلَى دِرَاسَةٍ ، ومنْ هَذِهِ المَوضُوعَاتِ:

١ ــ مَعنُ بنُ زَائِدَةَ في الشِّعرِ العَبَّاسِيِّ .

٢ ــ رِثَاءُ مَعنِ بنِ زَائِدَةَ فِي الشِّعرِ العَبَّاسِيِّ .

٣ ــ مَوازَنَة بَينَ رِثَاء مَروَان بنِ أبي حفصَة لِمَعنٍ وبينَ رِثَاءِ غَيرِهِ مِن الشُّعرَاء العبَّاسِيِّينَ .

وفِي نِهَايَةِ بَحثِي أَعتَرِفُ أَنَّ مَا قُمْتُ بِهِ هُو جُهدُ المُقِلِّ مَعَ أَنَّنِي لَمْ ادَّخِرْ جَهداً فِي سَبِيلِ أَنْ يَحظَى بالقَبُولِ . واللَّهُ وَحدَهُ المُوَفِّقُ والهَادِي إِلَى الرَّشَادِ .

أهم المصادر والمراجع

١ــ الأدب العربيّ في العَصرِ العبَّاسيّ الأوَّل : د / مُحمَّد عبد المُنعِم خَفَاجيّ ، (ط : الأُولى) ، دار الجيل ، (١٤١٢ هـــ ــ ١٩٩٢ م) .

٢ــ الأغَانيّ: لأبِي الفرج الأصفَهَانيّ : تحقيق: إحسان عبَّاس، (ط : ٣)، دار صادر، (١٤٢٩ هـــ ــ ٢٠٠٨م) .

٣ــ تَاريخ آداب اللُّغَة العَربيَّة : جَورجي زيدان ، (د : ط) ، دار الهِلال .

٤ــ تَاريخ الأدب العربيّ في العَصرِ العبَّاسيّ بغَيرِ الأندَلُسِ والمَغْرِب : السَّبَاعي بَيُّومي ، (ط : ٢) ، مطبعة العلوم بشَارعِ الخَليج ، (١٣٥٦ هـــ ــ ١٩٣٧ م) .

٥ ــ الجَامِعُ فِي تَاريخِ الأَدَبِ العَرَبيّ القَدِيم : حَنَّا الفَاخُوريّ ، (د : ط)، دار الجيل .

٦ ــ رِحلَة الشِّعرِ من الأُمويَّةِ إِلَى العَبَّاسيَّةِ : د/ مُصطفَى الشَّكعَةِ ، (ط : الأُولى) ، الدَّار المصريَّة اللُّبنَانيَّة ، (١٤١٨ هـــ ــ ١٩٩٧ م) .

٧ ــ شعر مَروَان بن أَبِي حفصَة : د/ حسين عطوان ، (ط : ٣) ، (ط : دار المعارف) .

٨ ــ العقد الفريد لابنِ عبدِ ربِّه، تحقيق: أحمد أمين، (د: ط)، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٩ ــ العمدة في صِنَاعَة الشِّعر ونقده : لابنِ رَشِيق القَيرَوَانيّ، (ط: الأُولى)، مطبعة السَّعادة، (١٣٢٥ هـــ ــ ١٩٠٧ م) .

١٠ ــ الفهرست لابن النَّديم : (ط : ١) ، مكتبة خيَّاط بيروت .

١١ ــ في البلاغَةِ العَرَبيَّةِ : د / مُحمَّد مُصطفَى هَدَّارَه، (ط : ١)، دار العلم للملايين ، (١٤٠٩ هـــ ــ ١٩٨٩ م) .

١٢ ــ في النَّقد الأَدبيّ : د / عبد العزيز عتيق ، (ط: ٢) ، دار النَّهضة العربيَّة ، (١٣٩١ هـــ ــ ١٩٧٢ م) .

١٣ ــ لطائف المعارف : تحقيق : إبراهيم الإبياريّ ، (ط : دار إحياء الكتب العربيَّة) .

١٤ ــ معجم الشُّعراء للمرزبانيّ ، (د : ط) ، دار إحياء الكتب العربيَّة ، (١٩٦٠ م).

١٥ ــ المديح والفخر بين جرير والفرزدق والأخطل : ظَافِر عبد اللَّه ، (د : ط) ، (١٤٠٥ هـــ ــ ١٤٠٦ هـــ) .